ثقافة مكة المكرمة
في أدب الرحلات الحجازية

إعداد

الدكتور إبراهيم بن عبدالله السماري

عضو الجمعية السعودية للدراسات الدعوية

بحث مقدم إلى ندوة

مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية ١٤٢٦هـ

مقدمـــة :

الحمـــد لله رب العـــالمين والـــصلاة والـــسلام علـــى أشـــرف الأنبيـــاء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد :

فـــإن أدب الـــرحلات أدب شـــائق لأنـــه تجـــسيد للتجربـــة الإنـــسانية، ووعـــاء أمـــين لنقـــل المـــشاعر والمعانـــاة ومـــاهو قريـــب مـــن الوجـــدان في لحظـــة الحـــدث، وتزيـــد أهميـــة هـــذا الأدب عنـــدما تـــصاغ تلـــك المـــشاعر بيـــد ماهرة، تستخدم كلمات معبرة، وأدوات لغوية جاذبة .

ويـصبح تعلـق القـاريء بهـذا الأدب أكـبر إذا أصـبحت تلـك المعانـاة أثـراً بعـد عـين، ممـا يغـري الحاضـر بتعقـب معانـاة الماضـي، ورسـم صـورة واضـحة للفـرق بـين حقبـتين تـاريخيتين مختلفـتين في كـثير مـن عناصـر عطائهـــا وتفاعلـــها وظـــروف معاشـــها وعلاقاتهـــا الاجتماعيـــة وطريقـــة تفكيرهـــا إلى آخـــر مـــايتعلق بإنتـــاج الفكـــر الإنـــساني، أي أن الرحلـــة تكتـسب أهميـة خاصـة ونكهـة مميـزة إذا كانـت بعيـدة العهـد وتـصف ماضـياً غابـت رسـومه أو تغـيرت ملامحـه بفعـل تطـورات الحيـاة أوعوامـل النهضة نتيجة التغيرات الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية .

والـرحلات مـصدر مهـم مـن مـصادر المعرفـة عمومـاً، وهـي كـذلك مـصدر مهـم مـن المـصادر التاريخيـة ؛ لأنهـا تتـضمن الإشـارة إلى الأحـداث والوقـائع والتعريـف بالأمكنـة والأشـخاص ووصـف الحالـة الاجتماعيـة والاقتـصادية والـسياسية في زمـن محـدد هـو زمـن الرحلـة الـتي تتحـدث عـن مكـــان (مـــا) أو حادثـــة (مـــا) كمـــا تتحـــدث عـــن طبيعـــة العلاقـــات والمعـاملات الـتي تحكـم سـير المجتمعـات البـشرية في حقبـة تاريخيـة معينـة وهكذا.

ومما يزيد أهمية مصدر الرحلات أن الرحلة تصاغ في الغالب بأسلوب أدبي مميز، ولاسيما إذا كانت لدى المؤلف أو كاتب الرحلة ذائقة أدبية وبلاغية ثرية .

كما أن الرحالة يحرص على الاتصال بالأشخاص العاديين الذين هم عادة يعبرون عن انطباعاتهم وانفعالاتهم بعفوية واسترسال لاتقيده قيود التحفظات ؛ بحكم أنهم يتحدثون في مجالسهم ومع أشخاص يشاركونهم حياتهم .

ولابد أن أنوه إلى أن غالب الرحلات التي وصفت أو سجلت معلومات دقيقة وعلمية إلى حد (ما) عن جغرافية الجزيرة العربية وتاريخها، وربما كانت هي المصادر الأجنبية المكتوبة الأولى في هذا المجال قام بها رحالة أجانب، أصبحوا أعلاماً، مثل سادلير وبلجريف وشكسبير وليتشمان وفيسي وفيلبي وغيرهم كثير جداً .

لقد كانت الرحلات بصفة عامة والرحلات الحجازية بصفة خاصة معيناً متجدداً للباحثين والدارسين الغربيين ؛ حيث ترجمت كثير من الرحلات إلى أكثر من عشرين لغة أجنبية، وحظي كثير منها بتعليقات وتحقيق رموز فكرية غربية، وبرعاية مراكز بحثية علمية مرموقة ؛ نظراً لأهميتها التاريخية والثقافية .

إن هذا هو بالذات مايحفزني إلى الحديث عن (ثقافة مكة المكرمة في أدب الرحلات الحجازية)، ولايمكنني الادعاء أن هذا البحث فتح مبين في بابه، أو أنه سبق إلى موضوعه، غير أنني أقول بقلب مطمئن : إن الجوانب الثقافية التي وردت في الرحلات الحجازية

لم تحظَ بحقها من العناية المركزة، القادرة على إبراز حقيقتها، وتوضيح أبعادها، ومن ثمَّ إبراز أهمية هذه الرحلات في تسجيل الفعل الثقافي عبر العصور في مكة المكرمة، يستوي في ذلك ماتم تسجيله عرضاً أثناء الحديث عن مراحل الرحلة ومشاهدات الرحّال، وماقصد بيانه منه نتيجة غلبة المشارب الفكرية ذات الطبيعة الثقافية للرحالة أنفسهم، وبالتالي فإن الضرورة إلى مثل هذا البحث لاتزال قائمة .

وبالتالي فإن المروم من هذا البحث أن يكون لبنة في بناءٍ مأمول ؛ لتفعيل هذا الجانب الثري من ثقافتنا الإسلامية الرائدة ؛ وصولاً إلى هدف شامخ هو إصدار عمل موسوعي يوثق الجوانب الثقافية في أدب الرحلات .

ولعله من المناسب هنا أن أشير إلى بعض الكتب التي ظهرت فائدتها في هذا المجال، ومن أهمها :

١ = المختار من الرحلات الحجازية، د/ محمد بن حسن بن عقيل، نشر دار الأندلس الخضراء، ط١، ١٤٢١هـ، في أربعة مجلدات.

٢ = الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية، نشر دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٤هـ، في جزءين .

٣ = الرياض في عيون الرحالة، أمانة مدينة الرياض، ١٤٢١هـ .

٤ = الحياة العلمية في مكة المكرمة في القرنين السابع والثامن الهجريين، طرفة العبيكان، نشر مكتبة الملك فهد الوطنية ١٤١٦هـ

٥ = الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين، عواطف نواب، نشر مكتبة الملك فهد الوطنية ١٤١٧هـ .

٦ = الحياة الثقافية في مكة المكرمة في القرن التاسع عشر الميلادي، يحيي محمود بن جنيد، نشر مؤسسة اليمامة الصحفية، كتاب الرياض ١٠٠.

منهج البحث :

يعرِّف علماء البحث منهج البحث بأنه : (الطريقة التي يتعين على الباحث أن يلتزم بها في بحثه، بحيث يتقيد باتباع مجموعة من القواعد العامة التي تهيمن على سير البحث، ويسترشد بها الباحث في سبيل الوصول إلى الحلول الملائمة لمشكلة البحث) [(١)]

أو هو : (مجموعة القواعد المصاغة من أجل الوصول إلى الحقيقة في العلم، واختصاراً فالمنهج هو: الطريق الموصل إلى الحقائق العلمية تبعاً لقواعد يستضيء بنورها الفكر) [(٢)]

وللبحث مناهج متعددة، تختلف باختلاف العلوم التي تعالجها .

---

١ – عبدالفتاح خضر، أزمة البحث العلمي في العالم العربي، الطبعة الثانية ذو القعدة ١٤٠١هـ . بدون ذكر الناشر ص١١.

٢ – محمد أزهر السماك ورفيقاه، الأصول في البحث العلمي، ط١ نشر جامعة الموصل ١٤٠٠هـ صـ٤٢ وانظر: عبدالرحمن بدوي، :(مناهج البحث العلمي)، نشر دار النهضة العربية بالقاهرة ١٩٦٨م صـ٣٠.

ولأن الهدف من هذا البحث هو التعرف على عناصر ثقافة مكة المكرمة من خلال أدب الرحلات الحجازية ؛ لذا فقد تم استخدام المنهج الوصفي، الذي يعتمد على جمع المعلومات حول موضوع معين؛ لتفسيرها وتحليلها، والتعرف على جوانبها المختلفة، ومن ثم التوصل إلى النتائج المناسبة .(١)

مع عدم إهمال المناهج الأخرى عندما تدعو إليها ضرورة البيان.

تقسيم البحث :

هدف البحث هو تسليط الضوء على أهمية الموضوع، وإبراز حقيقة جوانبه الثقافية المضيئة، ولم يدر بخلد الباحث – نظراً لتشعب الموضوع وضخامة موارده ومادته – الحصر والاستقصاء، لذا فقد تردد في اختيار كيفية مناسبة لتقسيم بحثه ؛ تبرز مقصوده ومبتغاه من هذا البحث .

كانت أمامه طريقتان ؛ الطريقة التقليدية القائمة على تقسيم البحث بحسب العناصر الثقافية المراد تناولها، كالحياة العلمية، وأهم العلماء، وأهم الكتب، والثقافات الأخرى المختلفة كثقافة الزينة، والسقيا، ونحو ذلك، ومن ثمَّ عرض ماكتبه كل رحالة تحت بند كل عنصر .

إلا أن الباحث رأى أنه سيترتب على هذه الطريقة سيئتان، أو

---

١ – انظر : محمد زيان عمر، البحث العلمي مناهجه وتقنياته، نشر الهيئة المصرية العامة بالقاهرة ١٣٩٤هـ، صـ ١٠ .

وجهان من القصور، الأول : أن هذه الطريقة لاتلبي هدفه الأول من البحث وهو إبراز جماليات أدب الرحلات، وبالتالي أهمية الرحلات الحجازية في إبراز ثقافة مكة المكرمة .

والوجه الثاني : أن هذه الطريقة لاتحقق المتعة للقارىء حيث تشبه الأعمال الببليوجرافية، والببليوجرافيا – نسقية أو تحليلية – مهمة في التوثيق، إلا أنها لاتملك هذه الأهمية في التذوق !

وبالتالي اتجه الباحث نحو تقسيم آخر رأى أنه سيحقق هدفه من إبراز جمال أدب الرحلات، ومتعة القارىء، وذلك بالاستعراض الموجز لعدد من الرحلات ؛ ليبدو وكأن القارىء يعيش مع أصحابها في مكة المكرمة، في مختلف العصور .

تم تقسيم البحث إلى تمهيد وثلاثة مباحث ؛ تناول التمهيد خصوصية المكان وأهمية الموضوع، في حين ركز المبحث الأول على استعراض (نماذج للجوانب الثقافية في كتابات الرحالة الشرقيين عن مكة المكرمة)، وركز المبحث الثاني على استعراض (نماذج للجوانب الثقافية في كتابات الرحالة الغربيين عن مكة المكرمة)، وتناول المبحث الثالث (أدب الرحلات الحجازية والأثر المتعدي لثقافة مكة المكرمة)

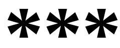
ولعله من فروض الوفاء التي مافتئت لازمة من لوازم العقلاء أن أشير إلى الجهود الثقافية الكريمة التي يبذلها المسؤولون في جامعة أم القرى بمكة المكرمة، المتمثلة في تنظيم هذه الندوة الكبرى احتفاء باختيار مكة المكرمة عاصمة للثقافة الإسلامية، وتركيزهم فيها

على الجوانب الثقافية ذات الطبيعة الإثرائية في بحوثها وندواتها .

وإن كان من المؤكد أن مكة المكرمة – في الحقيقة – عاصمة دائمة للثقافة الإسلامية، فلاتحتاج إلى اختيار، إلا أن التنبيه إلى هذا الجانب، وبهذا العمل العلمي الكبير، الذي سخرت له الكفاءات والطاقات، وقبل ذلك حشدت له عقول مستنيرة من علماء الأمة ومفكريها في الداخل والخارج ؛ سيكون محموداً بالنظر إلى تحريك الساحة الثقافية، وإثراء المكتبة الإسلامية بكتابات، ورؤى، وتصورات، واقتراحات سيكون لها الأثر العلمي النافع بإذن الله عز وجل، مما يوجب توجيه الشكر للقائمين على هذه الندوة، وتنظيم فعالياتها تخطيطاً وتنفيذاً، بارك الله في جهودهم، ونفع بها الإسلام والمسلمين .

ولي رجاء مقرون بالشكر والدعاء – سلفاً – لكل أخ كريم، قرأ هذا البحث، فآزرني بملحوظاته، أو تعقباته ؛ بمايثريه، ويحقق هدفي وهدفه منه، وهو خدمة ثقافة مكة المكرمة، وقبل ذلك خدمة ثقافة ديننا الإسلامي العظيم ؛ تعاوناً على البر والتقوى .

وبالله التوفيق،



التمهيد

(خصوصية المكان وأهمية الموضوع)

الرَّحَّالَةُ عُمْلَةٌ نادرة في كل مجتمع ؛ لأن عَمَلَهُ يوصف بأنه متعب بدنياً وذهنياً ، وإنما يخفف وطأته مايتحلى به هذا الرحَّالة غالباً من الرغبة في توسيع الدائرة المعرفية لديه ولدى من يخاطبه عند تسجيل أو سرد أحداث رحلته وعرض مشاهداته وإبداء انطباعاته حيالها .

وإذا كان من المؤكد أن بعض الرحلات تكتسب خصوصية تضفي عليها مزيد أهمية ، فإن المؤكد كذلك أن هذه الخصوصية ترجع حيناً إلى طبيعة الرحلة ، وأحياناً إلى صاحب الرحلة ، وأحياناً إلى مكانها ، وأحياناً إلى زمانها ، وأحياناً إلى الظروف المحيطة بها .

ولذا نجد أن بعض هؤلاء الرحالة ذو تميز ، قد ضرب الله عز وجل له من توفيقه بسهم وافر في أدب الرحلات ، حيث يملك دقة متناهية في وصف الرحلة والتعريف بدقائقها ، فلايغادر صغيرة ولاكبيرة مما هو في متاحات البشر إلا سجله وسلط عليه إضاءات تكفي لإشباع نهم المتلقي ، بما يملكه من قدرات في مجال تصيد تساؤلات وتوقعات المهتمين بمتابعة أخبار الرحلة ، كما رزقه الله توفيقاً آخر يتمثل في أسلوبه السهل الممتنع عند عرض عناصر رحلته ، بما يملكه من أدوات التأثير اللغوية ، والترابط المنطقي بين مايعرضه من مواقف وأحداث ورؤى ، مع حرصه على كتابة الأسماء والمسميات كما ينطقها أهلها ، وغوصه كثيراً في تعليل مدلولاتها ، فتكتسب

الرحلة بذلك أهمية وخصوصية تأسر القارئ في قيود الشغف بمتابعتها .

وملمح ثقافي مهم في أدب الرحلات يحسن التنبيه إليه وهو أن الحوار ركن ركين من خصائص كل رحَّالة ؛ لأن المفترض أنه إنما يحصل على كثير من المعلومات في رحلاته عن طريق الحوار مع الأشخاص الذين يلتقيهم، فيستنطقهم ليجيب عن التساؤلات التي تثيرها مشاهداته .

ولذا فقد تنوعت موارد ثقافة الحوار عند الرحالة، وصقلتها الدِّربةُ والتلاقح الفكري والتواصل مع الآخرين بحكمة وإقناع، فَأَثْرَت رحلاته إثراءً بيِّناً، وزادت وهجَها تألقاً، وكان ذلك سبباً في علو درجة أدب الرحلات من حيث القيمة العلمية والتاريخية ؛ نظراً لاعتماده على تسجيل أحداث الواقع بأمانة، وأيضاً بأيدٍ خبيرة متمكنة .

يضاف إلى ذلك أن بعض الرحلات تكتسب خصوصية، تضفي عليها مزيد أهمية، وهذه الخصوصية ترجع حيناً إلى طبيعة الرحلة، وأحياناً إلى صاحب الرحلة، أو مكانها، أو زمانها، أو الظروف المحيطة بها .

ولتوضيح الأهمية الثقافية في أدب الرحلات الحجازية يلزمني استحضار ملامح الصورة كاملة، فقد كانت الخلافة الإسلامية في وقت من الأوقات تمتد من حدود الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، ومن آسيا الوسطى وجبال القوقاز إلى جنوبي الصحراء الكبرى.

وفي عصرنا الحاضر الذي تقاربت فيه البلدان، نجد في كل قارة من قارات العالم – أي في كل أنحاء العالم – بلداً مسلماً أو أقلية مسلمة، فللقارئ الكريم أن يتصور تنوع المواقع الجغرافية التي يمر بها الحاج حتى يصل إلى مكة المكرمة، ومافيها من تأثيرات ثقافية يمكن أن يتأثر بها، ومايمكن أن ينقل إليها من تلك التأثيرات، وماتطبعه التجربة الإيمانية من أثر في نفسه ينقله في عودته إلى تلك المواقع، انتهاء إلى بلده ؟

يضاف إلى ذلك أن محطات قوافل الحج في القديم والحديث تتحول إلى مراكز ثقافية، وصروح حضارية، يجتمع فيها أهل العلم والأدب، ويتم تداول الفعل الثقافي فيها عن طريق المسامرات، والكتب، والرسائل الأخوانية، وغير ذلك من ضروب الثقافة ؛ لأن الاجتماع في هذه المحطات وإن كان من أجل الوقوف للراحة، إلا أنه لايتوقف عند هذا الحد، وإنما يتعداه كثيراً إلى الفكر، عن طريق الاتصال المباشر بالرجال الذين يلتقيهم الحاج من مختلف المشارب الفكرية والثقافية، والاستماع إليهم، والحديث إليهم بصدق وشفافية ووضوح وعفوية في كثير من الأحيان، ومن ثمَّ التأثير فيهم، والتأثر بهم ؛ فكراً وثقافة وعادات وأعرافاً، وربما وصل ذلك إلى حد التأثير المذهبي .

بل قبل ذلك فإن قوافل الحج ذاتها تكاد أن تكون جامعة متنقلة بالنظر إلى طبيعة أشخاصها وتنوع مشاربهم الفكرية وثقافاتهم، فيهم الفقهاء، والقضاة، والمفتون، والأدباء، والوعاظ،

وعامة الناس بعفويتهم التي تستلفت النظر، وهكذا، ولاسيما في الزمن الماضي حيث كانت رحلة الحج تستغرق في كثير من الاتجاهات قرابة الشهر، وأحياناً أكثر ؛ فكل ذلك يصنع مناخاً معرفياً، مؤهلاً للتنامي نتيجة الاجتماع والرفقة في سير الرحلة .

ولتوضيح الصورة أكثر فأكثر أشير إلى أن الذين يقصدون الحرمين الشريفين ليسوا بالضرورة ممن يحسنون اللغة العربية، وإنما يتكلمون لغات مختلفة، فيها المعروف وغير المعروف، وفيها المستعمل والمهجور ؛ وفيها الشائع والنادر ؛ فذلك أثر ثقافي لايمكن للباحث المنصف أن يتجاهله .

كما أن الرحلات الحجازية كان لها أهمية ثقافية في تسجيلها وقائع ثقافية لم تحظ بتسجيل آخر كما هي الحال في منطقة (حجر اليمامة – موقع مدينة الرياض اليوم –) التي عانى تاريخها من انقطاع في بعض فتراته، فكان توقف بعض الرحالة في هذه المنطقة مؤكداً للحالة الثقافية والعلمية المزدهرة لهذه المنطقة في فترة تاريخية معينة، لايوجد في أية مصادر أخرى .

وفي ضوء هذه الحقيقة المؤكدة فإن رحلات الحج تكتسب أهميتها وخصوصيتها من خلال عدد من المظاهر فمن حيث طبيعتها تكتسب خصوصيتها من كون الرحلة إلى الديار المقدسة ذات صبغة دينية تهدف إلى إظهار العبودية لله عز وجل، ومبعث فخر لمن قام بها، ولذا يفرح كثيراً بصفة الحاج التي تلازمه في كثير من البلدان الإسلامية طيلة حياته بعد أداء نسكه .

ومن حيث المكان فإن مكة المكرمة هي عاصمة الإسلام وقبلة المسلمين ومهوى أفئدتهم ومحط أنظارهم، ومجرد ذكرها يستأثر بانتباههم ويأسر تطلعاتهم وشغفهم، ناهيك عن تفصيل أخبارها.

كما أن المسجد الحرام كان دون شك – في جميع العصور الإسلامية – جامعة فريدة، مهوى أفئدة علماء المسلمين وطلبة العلم، وفيه تدرس العلوم المختلفة دون قيود أو تكاليف على المتعلمين، وإنما تزدهر الحياة العلمية فيه أو تضمحل بحسب الحالة الثقافية السائدة في كل عصر .

لقد وصل المسجد الحرام إلى مركز للفتيا المصدرة للعالم الإسلامي أجمع في وقت من الأوقات ؛ نتيجة شهرة وفضل علمائه آنذاك، كما انتشرت كتب هؤلاء العلماء ودروسهم في الحرم في أصقاع المعمورة عن طريق طلبة العلم.

يضاف إلى ذلك تنوع الكتب المتداولة في ثقافة مكة المكرمة كما وردت في كتب الرحلات، ممايؤكد أهمية دراسة هذه الثقافة ومعطياتها عبر العصور المختلفة .

ومن حيث الزمان فإن موسم الحج الذي تشهده المشاعر المقدسة بمكة المكرمة هو الركن الخامس من أركان الإسلام وهو مرقى طموح كل مسلم ومنتهى أمله ؛ لأن كل مسلم لاريب أنه يتطلع إلى أن يؤدي هذا الركن العظيم، وهو في ذات الوقت يفرح برؤية أخوانه المسلمين وهم يؤدونه، أو حين يصفه له من رحل منهم إلى الديار

المقدسة ؛ لما يثيره ذلك الوصف أو تلك المشاهدة في نفسه من بواعث الشوق والحنين والشعور بالأخوة والوُحدة الإسلامية، التي يحققها هذا الركن العظيم الركن الخامس من أركان الإسلام وهو الحج .

فالحج صلة بين العبد وربه يحقق العبد من خلالها عبوديته لله عز وجل، ويقوى صلته به، فأداء الحج حينئذ اتباع نابع من محبة وشعور بالحاجة إلى رضا المعبود المحبوب، وقدوم الحاج للحج بلباس معين يذكره بقدومه على الله عز وجل، فهو رقي روحي وتأمل وتفكير وخضوع جسدي .

أما الرقي الروحي فبما فيه من شعور بالصلة بالله وخشيته، بدلالة ما في الحج من مناسك تدل على مناجاة المعبود كالوقوف بعرفة والنحر وغيرها .

وأما التأمل والتفكير فبما فيه من تهليل، وتسبيح، وتكبير، وقراءة، وأذكار، وحركات، موجبة للخضوع، الخ .

وأما الخضوع الجسدي ففي الحج أعمال بدنية كثيرة تشعر بالامتثال والتذلل للمولى عز وجل .

كما أن الحج يهذب نفس العبد ويزكيها من شوائب المعاصي، ويربي روحه على حب الخير والتعاون، بما يعود على المجتمع المسلم عامة بالخير والنفع ؛ لأنه يعوِّد المسلمين التعاون والتعارف ويزيد أواصر التآلف بينهم .

فهذه المعاني التربوية تصبغ رحلات الحج إلى مكة المكرمة

بطابعها وأهميتها ؛ لأنها تؤكد هذا الالتزام وتذكر به عندما يقرأها أو يسمعها المسلم من أخوانه الحجاج، ولاسيما أن الحج عبادة إيمانية فيها العمل القلبي والعمل الجسمي والبذل من المال الذي تؤثره النفوس وتحب جمعه لابذله .

ثم إن من أهم مقاصدها الإيمانية في المجموع تجمع المسلمين جميعاً في أوقات محددة وأمكنة معينة لإظهار الشكر لله تعالى على نعمته سبحانه بالإيمان التي هي أعلى نعمة وتيسيره سبل الطاعات لهم، ودلالته إلى تحصيل الأخوة الإيمانية في اجتماع يتساوى فيه من يحضره إلا بحسب العمل المقرب إلى رضوان الله .

فأيام الحج الفاضلة تتحول بالنسبة لحجاج بيت الله الحرام إلى جامعة إسلامية فذة، يقرأون في موادها تاريخ الإسلام الزاهي وأمجاده العظيمة، وتطلعاته القادمة، ذلك أن الحج رباط وثيق بين الماضي والحاضر والمستقبل، يحكي مشاهد من التضحيات المخلصة والانتصارات الباهرة، المستضيئة بنور العقيدة وصفاء الإيمان وإخلاص النية وصدق العمل، ويحفز النفوس المسلمة نحو العمل الجاد للنهوض بأمتهم مستقبلاً .

ومما يزيد أهمية رحلات الحج أن في الحج رموزاً بارزة وأهدافاً نبيلة تستحق أن يهبها المسلم قدراً كبيراً من التأمل، وقدراً أكبر من الاتعاظ لعمق أثرها وتأثيرها، فالمسلم يقدُم إلى البيت الحرام من بلاد بعيدة متكبداً مشاق السفر ومتحملا نفقات مالية كثيرة وقد لايكون في سعة من المال، ولكنه يستجيب لداعي الله في قوله

سبحانه وتعالى ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِّيَشْهَدُواْ مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ (١)

فإذا كانت هذه حال الحاج من الرغبة في رضوان الله والتلبس بالإخبات والتقوى فإن اقتناص فرص الخير في قلبه وتنشيط نوازع الإقبال على الله في فعله لغسل خطاياه وتنقية دنس روحه إذا تمت بدعوة حكيمة بالحسنى فإنها ستكون ميسرة وقريبة من قبول المدعو بأقل جهد من الداعي ؛ لأن الظروف تساعد على نجاحها ، وإن تجسيد الحكمة من أعمال الحج في معانٍ قريبة من فهم المدعو ميدان آخر تتنفس فيه الدعوة الحكيمة نجاحاً إثر نجاح بإذن الله لما في ذلك التجسيد من معرفة بحقائق الدين وثوابت التوحيد ، التي تدني ثمار الموعظة واليقين إلى الأفهام المستقيمة .

إن وسيلة الرحلات من أهم الوسائل التي يمكن من خلال عرض وقائعها ومشاهداتها التأثير في المسلمين، لاستجلاب وعي حقيقي ومؤثر بالمعاني النبيلة والمدلولات السامية للحج، واستحضار أثرها العميق في حياة المسلمين، أفراداً ومجتمعاتٍ وأمة .

وفوق ذلك فإن شخصية صاحب الرحلة قد يكون لها تأثير بليغ في الآخرين لاتحققه وسيلة أخرى فحديث الإسلام عندما يتحدث بلغته

١ – سورة الحج، الآيتان ٢٧و٢٨ .

عن رحلته إلى الحج مبدياً ماعاشه من مشاعر إيمانية صافية وتطلعات روحية رائعة لاريب أنه سيؤثر في آخرين من حديثي الإسلام يفضي إلى حثهم على الترقي في الدين والتزود من خيراته علماً وعملاً، وربما أثّر في غير المسلمين لتفاعلهم مع صاحب الرحلة ورحلته مما يغريهم بالبحث عن حقائق وخصائص هذا الدين الذي أثمر تلك المشاعر الإيمانية المتميزة وتلك التطلعات الروحية الرائدة .

كما أن رحلات العلماء وطلبة العلم بوجه خاص وسيلة مهمة من وسائل تعليم الناس فقه الحج وشرح أحكامه ومراميه لهم .

وفي الجانب الآخر نجد أن الرحلات إلى مكة المكرمة تكتسب خصوصية متميزة لكونها العاصمة المقدسة، التي لها منزلة خاصة عند جميع المسلمين في كل أصقاع الأرض، فيتشوق كل مسلم إلى معرفة الرحلات إليها، وماتسجله عنها من انطباعات ومشاعر وأحاسيس تترجم مايختزنه وجدانه من أحاسيسه ومشاعره هو، بالإضافة إلى أن هذه الرحلات تغري الآخرين بالتعرف على سرّ تعلق المسلمين بهذه البقعة المباركة .

لقد بينت في مقدمة هذا البحث أن أدب الرحلات من فنون الآداب العالمية العريقة، والآن يمكنني القول بقلب مطمئن إلى الصواب : إن أدب الرحلات إلى الأماكن المقدسة بخصوصه يعد من أرقى مجالات هذا الأدب ؛ لأن الرحلة إلى بيت الله الحرام في مكة المكرمة – والشأن ذاته بالنسبة للرحلة إلى المسجد النبوي في المدينة – تستأثر باهتمام شريحة كبيرة جداً من المسلمين الذين يتطلعون إلى

زيارة هذه المقدسات، فلايجدون إرواءً لظمأ أشواقهم سوى مايكتبه طائفة من إخوانهم الذين حرصوا على تدوين مشاهداتهم ومشاعرهم وانطباعاتهم وأحوالهم في هذه الديار الطاهرة .

من المؤكد أن البيت الحرام – وهو موضوع بحثنا هذا – ظل مصدر إلهام لكثير من الكتاب والمؤلفين العرب وغير العرب الذين أتيحت لهم فرصة الرحلة إلى مكة المكرمة بصفتهم مسلمين، أو حتى بادعائهم الإسلام لإشباع رغبتهم في فهم أسرار تعلق المسلمين بهذه البقعة من الأرض .

لقد حظيت الرحلات الحجازية المدونة بنصيب وافر من الاهتمام بسبب ماتضمنته من التجارب الروحية التي يفصح عنها كاتب الرحلة، ولاسيما عند وصف المناسك والمشاعر المقدسة، ويأتي تبعاً لذلك وصف الأماكن والأسواق وتقاليد الأهالي وطبائعهم وصنوف البشر الوافدين إلى هذه الأرض من كل حدب وصوب، بمايشعر قاريء الرحلة وكأنه مع الرحالة في رحلته .

ومن المؤكد أن أهمية هذا الأدب تختلف في أهميته الثقافية وقيمته الأدبية بحسب قدرة الكاتب على تسجيل التفاصيل الدقيقة والوقائع الهامة من رحلته ؛ لأن ذلك يرتبط – دون شك – بموهبة الكاتب وإمكاناته الإبداعية والنقدية، وقدرته على توظيف ذلك كله لمصلحة المَشَاهد التي يصنعها في سياق رحلته .

وهذا هو بالذات مولد الصعوبة في تتبع الجوانب الثقافية في أدب الرحلات الحجازية ؛ نظراً لأن بعض كتاب الرحلات لايعيرون هذا الجانب أية أهمية، أو ربما ألمحوا إليه إلماحات لاتطفيء ظمأ

المثقف المتطلع إلى إبراز هذا الجانب إبرازاً إثرائياً واضحاً، ولاتشبع حاجة الموضوع إلى البيان والتدقيق والتحقيق العلمي الصحيح، ويتضح هذا من قراءة عدد من الرحلات التي يتضح منها أنها، أو أغلبها سجلت تعبيراً عن الامتنان للاستضافة الرسمية في الحج، حيث تكثر فيها النقول التاريخية المكرورة، وتختفي الإلماحات المفيدة للمثقف أو المؤرخ الفطن .

في حين نجد أن هناك طائفة منهم أولى الشأن الثقافي أهمية كبيرة من اهتمامات رحلته نظراً لمشاربه الفكرية ذات الطبيعة الثقافية ؛ لكونه من زمرة المثقفين، بل ربما كان من رواد الأدب والثقافة ونقاده .

ويمكن ضرب مثال على هذا النوع من الرحالة بجلال آل أحمد الطالقاني، صاحب كتاب (قشة في الميقات) الذي كان من رواد الأدب الفارسي ومن مثقفيه ونقاده المعروفين ومن الوسط الاجتماعي الراقي ومن الأغنياء، لكنه آثر – كما تفصح عنه مذكرات رحلته – أن يسافر مع القوافل الشعبية الفقيرة .

ويستنتج من هذا التصرف الذي أقدم عليه كاتب الرحلة، ومن حديث الطالقاني عن نوع الطعام والمسكن ووسائل النقل، وطبيعة المرافقين أن كاتب الرحلة أراد أن يعيش الصورة الحقيقية لهذه الرحلة، أي معاناة رحلة الحج .[1]

" لم تقتصر مطامح آل أحمد في رحلته على الملاحظات العابرة

١ – انظر : عبدالجبار الرفاعي، رحلة جلال آل أحمد إلى الحج، مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية، الندوة الكبرى، وزارة الحج ط١، ١٤٢٣هـ ص٦٧ .

والانطباعات العاجلة، وإنما كان يسعى إلى التوغل في الأبعاد الخفية لما يراه من ظواهر، ويعمل على تحليلها ؛ من أجل اكتشاف مضمراتها، ومالاتقوله من نزعات بشرية، ومايدخل في تشكيلها من عناصر ثقافية .

إنه يحاول أن يسجل ملاحظاته من منظور باحث أنثربولوجي، ولذلك يمكن أن تصنّف هذه المذكرات كوثيقة أنثربولوجية لدارس مهتم بالتعرف على طبائع المجتمعات الإسلامية، وأنماط ثقافاتها، من خلال معايشته الجماعات الوافدة للحج، من تلك المجتمعات، والاختلاط بمن يلتقيه منهم والمبادرة بسؤاله بما يتقنه من العربية أو الإنجليزية " (١)

ومما يجدر التنويه به ماتحتويه كثير من الرحلات الحجازية من معلومات تاريخية هامّة، حيث إن غالب كتاب هذه الرحلات يدونون مايشاهدونه من عمارة البيت الحرام، والحالة الدينية، والجغرافيا السكانية والعمرانية، والأسواق، والمتاجر، والمكتبات، والكتب، وعن العلماء أو الأدباء والمثقفين الذين التقوا بهم، أو حتى الذين سمعوا عنهم في مكة المكرمة، والشوارع، وثقافة السقيا، وثقافة الأكل، وثقافة العادات، وغير ذلك من أنواع الثقافات .

فتصبح هذه المدونات – مع مرور الزمن – وثائق مهمة للباحثين، والمؤرخين، والدارسين لتاريخ مكة المكرمة وثقافتها، في كل مجالات الحياة ؛ لأنها أصبحت من الماضي السحيق، الذي

١ – عبدالجبار الرفاعي، رحلة جلال آل أحمد إلى الحج – مصدر سابق – ص٦٨ .

لايمكن أن يعرف إلا من خلال كتابات من عايشوه عن قرب وتفاعلوا معه .

وقد لفت انتباهَ بعض الباحثين غلبةُ الجوانب العلمية على بعض الرحلات، حتى ظن أنها ربما تفقد طبيعتها المؤسسة على تدوين المشاهدات الجغرافية، فيقول : " اصطبغت الرحلات الحجازية التي كتبت في العهد العثماني بكثرة الاستطرادات العلمية والفقهية والأدبية، وكادت بذلك تبتعد عن موجب تسميتها تلك ؛ إذ قلت فيها التقييدات للمشاهدات والملحوظات والأوصاف المتعلقة بالمراحل في المسالك عبر الممالك في الطريق إلى البيت الحرام، وطغت هذه الظاهرة على تآليف عدد من الرحالة المغاربة، أمثال أبي سالم العياشي – حج عام ١٠٧٢هـ – وأبي علي اليوسي – حج عام ١١٠١هـ – وأحمد بن ناصر – حج عام ١٠٢١هـ – ومحمد الدرعي – حج عام ١١٥٢هـ – والحسين الوريتلاني – حج سنة ١١٨١هـ – ومحمد بن عثمان السنوسي – حج عام ١٢٩٩هـ "(١)

يضاف إلى ذلك أن بعض هذه الرحلات استخدمت بعض التقنيات الحديثة المساعدة في عملية التوثيق، مثل التصوير بالكاميرا، وبالرسم .

والحق والعدل أن هذا اللون من التوثيق اختص به – في بواكيره – الرحالة الأجانب، الذين يتقنون استخدام هذه التقنيات،

١ – د/ علي الشنوفي، مكة المكرمة والكعبة المشرفة في كتب الرحالة المسلمين، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات – بيت الحكمة –، ط١، ١٩٨٩م، ص ٩ .

وأهم من ذلك أنهم يدركون مدى أهميتها التوثيقية ، مثل جون جرفيه كورتلمون [(1)] ، وعبدالله (هاري سانت جون) فيلبي [(2)] ، وغيرهما من هواة التصوير الفوتغرافي والرسم بالريشة .

في حين لم يتألق هذا اللون في أذهان الرحالة العرب إلا متأخراً جداً ، وذلك أمر طبعي نظراً للحالة الثقافية السائدة في البلاد العربية والبلاد الغربية آنذاك .

وبذلك حقق الرحالة الغربيون أفضلية توثيقية في هذا الجانب، برغم أن استخدام الكاميرا في بعض تلك الأوقات كان محرماً ، فكيف به في الحرمين الشريفين ؟

فمثلاً تعد الصورة التي التقطها كورتلمون للمسجد النبوي سنة ١٣٢٨هـ –١٩١٠م – "من أقدم الصور الملونة لهذا المسجد، وتوجد هذه الوثيقة التاريخية في المتحف السينمائي روبير لينن في مدينة باريس" [(3)]

***

١ – جون جرفيه كورتلمون ، رحلتي إلى مكة، ترجمة د. محمد الحناش، نشر مؤسسة التراث بالرياض ط١، ١٤٢٣هـ .

٢ – عبدالله (هاري سانت جون) فيلبي، حاج في الجزيرة العربية، نشر مكتبة العبيكان بالرياض، ط١، ١٤٢١هـ .

٣ – جون جرفيه كورتلمون ، رحلتي إلى مكة، ترجمة د. محمد الحناش – مصدر سابق – ص ١٦ .

المبحث الأول

(نماذج للجوانب الثقافية في كتابات الرحالة الشرقيين عن مكة المكرمة)

يتبين من كتابات الرحالة في رحلاتهم الحجازية أنها تناولت مختلف مجالات الثقافة المعرفية، إلى درجة لاتكاد تخطر على بال، كالاهتمام بثقافة الديكور في مكة المكرمة، وثقافة النظافة الشخصية لدى سكان مكة المكرمة كحديثهم عن حرص نسائها على التطيب بالعطر الفاخر، ونحو ذلك مما قد لايوجد في كتب التأريخ، أو حتى كتب الثقافة العامة .

وقد حرصت في هذا المبحث والمبحث التالي له على تنويع الرحلات المعروضة من حيث زمانها ؛ لتعطي فكرة صحيحة عن الثقافة المكية في أزمنة مختلفة، ومن حيث أشخاصها ؛ لأن تعدد الأشخاص مئنة تعدد المشارب الفكرية، وبالتالي تعدد وتنوع المعطيات الثقافية، ومن حيث أمكنة القدوم ؛ بحكم أن البيئة التي يعيش فيها الرحال تتحكم في مشاهدات الرحالة، وفي تفتق ذهنه عن قراءة ما يلاحظه.

وأظنني بحاجة أن أنبه إلى مايواجه قاريء الرحلات من صعوبة تحديد تاريخها ؛ نظراً لأن كاتبها لم يحدد تاريخاً معيناً، فلابد حينئذ من الاجتهاد لتحديد هذا التاريخ من خلال كلام كاتب الرحلة ومن قابله، ووصف عصره .

ولنبدأ بإطلالة مجملة عن الجوانب الثقافية في رحلة محمد بن

أحمد بن جبير الأندلسي (ت٦٤١هـ)، المسماة (التذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار) [(١)] ، التي قام بها سنة ٥٧٩هـ .

فقد وصف المسجد الحرام والبيت العتيق، والحجر الأسود، وأبواب الحرم، والمقام، والمنبر، وتحدث عن أئمة الحرم ومذاهبهم، وعن أبواب مكة المكرمة، وجبالها، ومشاهدها وآثارها . [(٢)]

وتكلم عن عادات أهل اليمن في مكة المكرمة . [(٣)]

وتحدث عن عادات أهل مكة في العمرة، وعن مكانة المرأة المكية آنذاك . [(٤)]

وفي رحلة ابن جبير لابد أن يستوقفنا ما استوقف الأستاذ عبدالعزيز الرفاعي من أنه كان في رحلته حريصاً على تتبع الآثار المكتوبة، التي تسجل الأعمال العمرانية العظيمة، فهو – مثلاً – ينقل في كتابه ماوجده مكتوباً في الجهة التي من الغرب إلى الشمال، أمام جدار البلاط " أمر عبدالله، المهدي، أمير المؤمنين – أصلحه الله –

---

١ – ابن جبير، رحلة ابن جبير، تحقيق د/ حسان حلاق، مكة المكرمة من خلال رحلتي ابن جبير وابن بطوطة، نشر دار النهضة العربية ببيروت، ط١، ١٩٩٦م .

٢ – انظر : ابن جبير، رحلة ابن جبير، تحقيق د/ حسان حلاق، مكة المكرمة من خلال رحلتي ابن جبير وابن بطوطة، – مصدر سابق – ص ٣٠–٥٩ .

٣ – انظر : ابن جبير، رحلة ابن جبير، تحقيق د/ حسان حلاق، مكة المكرمة من خلال رحلتي ابن جبير وابن بطوطة، – مصدر سابق – ص ٧١، والصواب ماذكره الشيخ حمد الجاسر من أن الذين تحدث عنهم ابن جبير هم من السرو نسبة إلى جبال السروات، وليسوا من اليمن .

٤ – انظر : ابن جبير، رحلة ابن جبير، تحقيق د/ حسان حلاق، مكة المكرمة من خلال رحلتي ابن جبير وابن بطوطة، – مصدر سابق – ص٧٤–٧٥.

بتوسعة المسجد الحرام لحاج بيت الله وعماره في سنة سبع وستين ومائة"

وماوجده مكتوباً في وسط البلاط الذي من الجنوب إلى الشرق، على ساريتين مقابلتين للركن الأسود، منقوشاً فيهما : " أمر عبدالله، محمد المهدي، أمير المؤمنين – أصلحه الله – بإقامة هاتين الأسطوانتين ؛ علماً لطريق رسول الله ﷺ إلى الصفا ؛ ليتأسى به حاج بيت الله وعماره في سنة سبع وستين ومائة" (١)

وفي رحلة أبي عبدالله محمد بن عمر بن رُشَيد السبتي المغربي (ت ٧٢١هـ) المسماة (ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة) (٢) ، التي قام بها سنة أربع وثمانين وستمائة من الهجرة النبوية الشريفة تضمن الجزء الخامس منها مايتعلق بالحرمين ومصر والإسكندرية عبر عدد من المحطات الثقافية .

المحطة الثقافية الأولى فيما يتعلق بثقافة مكة المكرمة تتضح لنا عندما وصل السبتي رابغ في طريقه إلى مكة المكرمة فرأى أمراً عجباً من تخلُّلِ الوحشِ الغزالِ والأرنب بين الجمال والرحال بحيث يناله الناس بأيديهم، والناس ينادون حرام حرام، والجوارح قد سُلسِلَت خِيفةَ تعدي جاهلٍ يعتسفُ المجاهل، فقال في ذلك مرافقه: تأمل ترى

---

١ – عبدالعزيز الرفاعي، ابن جبير في الحرمين الشريفين ، نشر بنك الرياض، جدة ١٤١٠هـ ص٢٣.

٢ – أبو عبدالله محمد بن عمر بن رُشَيد السبتي، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة، تحقيق الدكتور محمد الحبيب ابن الخوجة، نشردار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤٠٨هـ .

عجباً !، هكذا جرت عادتُنا في هذا الطريق، يؤمنا ونحن محرمون، يمرُّ به من الوحش ماترى، فإذا عدنا محلين لم نجد به شيئاً، يقول السبتي : " فلما عدنا كان كما قال، فبان لي من معنى الآية الكريمة ﴿ياأيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا لَيبْلُوَنَّكُمُ اللّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيْكُمْ وَرِمَاحُكُم لِيَعْلَمَ اللّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ (١) مالم يمكن بغير المشاهدة " (٢)

فهذه الواقعة تحدد نمطاً ثقافياً سائداً في منطقة مكة المكرمة، وهو الالتزام بالأوامر الشرعية، وقد وظف كاتب الرحلة هذا النمط أحسن توظيف عندما ربطه بمدلول الآية القرآنية الكريمة.

وعندما وافَوا مكة المكرمة شرفها الله تلقاهم أهلها وأطفالهم، متعلقين بالناس ؛ ليعلموهم المناسك، وليهدوهم المسالك، قد دُرِّبَ صبيانُهم على ذلك، وحفظوا من الأدعية والأذكار مايَحْسُنُ هنالك، كما تحدث عن الأذكار في الطواف عند نزول المطر، وأشار إلى مايتعلق به من أحكام فقهية، حيث صادفهم ذلك . (٣)

كما أشار إلى أنهم رأوا في ليلة التاسع عجباً، فيما ابتدعته العامة من الاستعداد والاحتفال بوَقْد الشمع، بطول تلك الليلة، بالجبل

١ – سورة المائدة، الآية ٤٩.

٢ – أبو عبدالله محمد بن عمر بن رُشَيد السبتي، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة – مصدر سابق – ص ٧٥.

٣ – انظر : أبو عبدالله محمد بن عمر بن رُشَيد السبتي، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة – مصدر سابق – ص ٨٥.

القائم في وسط عرفات، المعروف عند العرب القدماء بالإل، موضحاً أن هذه الحالة من قبيح البدع، التي يجب أن يُزجَر عنها فاعلها، ويردع، وأن الإمامَ الفقيهَ ابنَ الحاجب نبّه على ذلك، فقال رحمه الله : "ومنها إيقادهم لنيران عليه أي الجبل ليلة عرفة واهتمامهم لذلك، باستصحاب الشمع له من بلادهم، واختلاط النساء بالرجال في ذلك، صعوداً وهبوطاً، بالشموع المشتعلة الكثيرة "

ثم يضيف السبتي : "وقد تزاحم المرأةُ الجميلةُ الرجالَ وبيدها الشمعةُ الموقدةُ، كاشفةً عن وجهها، وهذه ضلالة، شابهوا فيها أهل الشرك في مثل ذلك الموقف الجليل، وإنما أحدثوا ذلك من قريب، حين انقرض أكابر العلماء العاملين، الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر" (١)

فهو بهذه الكلمات يضيء لنا محطتين ثقافيتين، الأولى ماهو سائد في زمنه في مكة المكرمة، من ثقافة البدع الوافدة، وقد أشار إلى بدع أخرى، وأشار إلى اتباع عادات أفضت إلى ترك للسنة، كما هي حال الناس في مزدلفة وتركهم الوقوف على قزح . (٢)

والمحطة الثانية إشارته إلى انقراض العلماء العاملين الآمرين بالمعروف والناهين عن النكر في تلك الحقبة الزمنية .

---

١ – انظر : أبو عبدالله محمد بن عمر بن رُشَيد السبتي، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة – مصدر سابق – ص ٨٧.

٢ – انظر : أبو عبدالله محمد بن عمر بن رُشَيد السبتي، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة – مصدر سابق – ص١٠٣.

ثم يصف السبتي حالة الموقف يوم عرفة، متحسراً على تركِ سنة الجمع بين الصلاتين، حتى صار الناس يصلون خلف إمام يتم لهم ولايحسن السنة، ويؤخر الظهر إلى قريب العصر، مما جعل أهل العلم يصلون فرادى أو وهم مجتمعون في رحالهم، ثم يجيئون إلى الموقف للتشاغل بالذكر والدعاء .(١)

فهو هنا ينير لنا جزءاً من الحالة العلمية والثقافية المتدنية في زمن الرحلة، وضعف المرجعية العلمية آنذاك .

ثم يشير السبتي إلى العلماء والفقهاء والفضلاء الذين قابلهم في مكة والمشاعر، وطلب من غالبهم السماع والإجازة، وذكر شيئاً من مسلسلاتهم وإجازاتهم وسماعاته وسماعاتهم، وممن قابله الفقيه المفتي رضي الدين محمد بن أبي بكر العسقلاني المالكي وهو الذي تدور عليه الفتيا أيام الموسم، وكانت له مواقف مع أمير مكة أبي نمي الأول ومنهم : عَلَم الدين أحمد العسقلاني، والأديب الشاعر أمين الدين عبدالصمد الدمشقي، المعروف بابن عساكر الشافعي، ومنهم المحدث الإمام محب الدين أبو العباس الطبري المكي الشافعي، والإمام البسكري، وأبو الحسن التجاني، وعمر الصواف، ومنهم أبو محمد عبدالرحيم بن الزجاج، وأبو القاسم عبدالحميد بن الزجاج، البغداديان، وذكر حادثة طريفة وقعت له مع الشيخ أبي محمد الزجاج، فقد بان من ذلك الشيخ ضعفُ البدن والعجزُ عن القعود،

---

١ – انظر : أبو عبدالله محمد بن عمر بن رُشَيد السبتي، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة – مصدر سابق – ص٩٥.

فبادر البستيُّ إلى وضع وعاءٍ يحمل فيه كتبَه ؛ لدعمِ ركبةِ الشيخِ، فنظر إليه نظرة المغضَب، وأشار إليه أن استعمال الكتب في مثل هذا امتهان، ومنعه من ذلك .(١)

وأوضح أبو عبدالله محمد العبدري في رحلته المسماة (الرحلة المغربية)(٢) ، التي قام بها سنة ٦٨٨هـ شيئاً من الخرافات والبدع السائدة في ذلك العصر، مثل الخرافات عند جبل ثور، والياقوتة الحمراء التي وضعت لآدم موضع الكعبة، وكان في نظرته إلى هذه الخرافات منطلقاً من روح دينية صافية لاتقبل بغير مايطابق تعاليم القرآن الكريم وماصح عن النبي ﷺ .

ولذا فإننا نرى العبدري يقرر أن كل العلوم في تقهقر واضمحلال، في عواصم العالم الشرقية، إلا ماكان من بعض آحاد الأفراد، ممن لقيهم .(٣)

وظهر في رحلة العبدري اهتمام واضح بعلم التاريخ، والسير، وخصوصاً تاريخ الرجال، واحتوت على نقول أدبية كثيرة، نثرية وشعرية، من إنتاج الأدباء والشعراء الذين لقيهم .(٤)

---

١ – انظر : أبو عبدالله محمد بن عمر بن رُشَيد السبتي، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة – مصدر سابق – ص ١٢٩–٢٦٢.

٢ – أبو عبدالله محمد العبدري، الرحلة المغربية، تحقيق محمد الفاسي، نشر جامعة محمد الخامس.

٣ – أبو عبدالله محمد العبدري، الرحلة المغربية، تحقيق محمد الفاسي – مصدر سابق –، ص ١٨٦–١٩٩.

٤ – انظر : أبو عبدالله محمد العبدري، الرحلة المغربية، تحقيق محمد الفاسي – مصدر سابق – ص١١١–١٢٠.

ويحسن أن نسجل هنا قولاً قيل في وصف رحلة العبدري ليتضح لنا سبب حرصه على الاتجاهات الثقافية في رحلته ؛ إذ قيل : " ينبغي أن نقرر أن كلامه عن الطبيعة ومناظر السهول والجبال والبحار وهيئات المدن كما تبدو له من بعيد كلام كله إشراق وانفعال يدل على حساسية مرهفة بكل ماهو طبيعي طلق .

وهنا – والرجل على سجيته وراحة نفسه – يتكشف لنا العبدري عن جغرافي لمّاح يدرك بالنظرة الواحدة مالايدركة غيره بالتأمل" (1)

وقريباً مما سجله السبتي والعبدري عن المعطيات الثقافية في مكة المكرمة نقرؤه في رحلة معاصره قاسم بن يوسف التجيبي الأندلسي (ت ٧٣٠هـ)، المسماة (مستفاد الرحلة والاغتراب) (2)، التي قام بها سنة ٦٩٦هـ، ويهمنا فيها بعض الإشارات الثقافية التي تبرز أهم سمات ثقافة مكة في القرن السابع الهجري، ومنها :

١ = أنه تكلم عن الحالة المذهبية السائدة، وبعض البدع المستشرية آنذاك . (3)

٢ = أشار إلى محبة الناس لقراءة القرآن الكريم بالألحان، متوقفاً عند جمال بعض أصوات القراء، التي تكاد تخشع لحسنها

---

١ – د/حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، ط١، مدريد ١٣٨٦هـ ص ٥٢٣.

٢ – حمد الجاسر، مكة المكرمة في القرن السابع الهجري كما في رحلة التجيبي الأندلسي ، العرب س١١ ع ١و٢ رجب –شعبان ١٣٩٦هـ.

٣ – انظر : حمد الجاسر، مكة المكرمة في القرن السابع الهجري كما في رحلة التجيبي الأندلسي – مصدر سابق – ص ٥٩.

الجمادات كما قال .[(١)]

٣ = تحدث عن المدرسة المنصورية بمكة المكرمة، التي أنشأها الملك المنصور عمر بن علي بن رسول (ت ٦٤٧) مؤسس الدولة الرسولية باليمن .[(٢)]

٤ = وصف التجيبي آثار مكة، وظهرت غلبة العاطفة عليه عند وصفها، حتى إنه ليصدق كلام العامة حولها دون تمحيص[(٣)]

وتحدث عن علماء مكة كالعماد الطبري، الذي روى عنه صحيحي البخاري ومسلم وبعض السنن ومسند الشافعي وغيرها من كتب الحديث، الذي يظهر أنها كانت تحظى بعناية خاصة من العلماء وطلاب العلم في تلك الحقبة التاريخية، كما قرأ كتاب (أخبار مكة) للأزرقي (ت٢٥٠هـ).[(٤)] وقد استطرد التجيبي في ذكر من لقيهم من العلماء، وماحصل عليه من سماعات منهم .[(٥)]

ونتوقف قليلاً عند رحلة ابن بطوطة المغربي (ت ٧٧٩هـ)، المسماة : (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب

---

١ – حمد الجاسر، مكة المكرمة في القرن السابع الهجري كما في رحلة التجيبي الأندلسي – مصدر سابق – ص ٦٠.

٢ – حمد الجاسر، مكة المكرمة في القرن السابع الهجري كما في رحلة التجيبي الأندلسي – مصدر سابق –، ص ٦١ ، ويلحظ أن غيره من الرحالة نسب المدرسة لغير ملك الدولة الرسولية.

٣ – انظر : حمد الجاسر، مكة المكرمة في القرن السابع الهجري كما في رحلة التجيبي الأندلسي – مصدر سابق – ص ٦٢.

٤ – انظر : حمد الجاسر، مكة المكرمة في القرن السابع الهجري كما في رحلة التجيبي الأندلسي – مصدر سابق – ص ٦٦–٦٧.

٥ – انظر : حمد الجاسر، مكة المكرمة في القرن السابع الهجري كما في رحلة التجيبي الأندلسي – مصدر سابق – ص ٦٧–٧٠.

الأسفار)[1] ، التي قام بها سنة ٧٢٦هـ .

فقد تحدث عن ثقافة اللباس في مكة المكرمة، فذكر أن أهل مكة المكرمة لهم ظرف ونظافة في الملابس، وأكثر لباسهم البياض، فترى ثيابهم أبداً ناصعة ساطعة، ويستعملون الطيب كثيراً، ويكتحلون، ويكثرون السواك بعيدان الأراك الأخضر، ونساء مكة فائقات الحسن، بارعات الجمال، ذوات صلاح وعفاف، وهن يكثرن التطيب، حتى إن إحداهن لتبيت طاوية، وتشتري بقوتها طيباً، وهن يقصدن الطواف بالبيت في ليلة كل جمعة، فيأتين في أحسن زي، وتغلب على الحرم رائحة طيبهن، وتذهب المرأة منهن فيبقى أثر الطيب بعد ذهابها عبقاً[2] .

وأشار إلى مشاهداته عن بعض عادات المكيين التي تبرز ثقافتهم[3] .

كما تحدث عن قاضي مكة، وخطيبها، وإمام الموسم، وعلمائها، وصلحائها، والمجاورين فيها، وذكر شيئاً عن المدرسة المظفرية داخل الحرم الشريف[4] .

---

١ – ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، تحقيق د/ حسان حلاق، مكة المكرمة من خلال رحلتي ابن جبير وابن بطوطة، نشر دار النهضة العربية ببيروت، ط١، ١٩٩٦م .

٢ – انظر : ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، تحقيق د/ حسان حلاق، مكة المكرمة من خلال رحلتي ابن جبير وابن بطوطة – مصدر سابق – ص ١٥٢.

٣ – انظر : ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، تحقيق د/ حسان حلاق، مكة المكرمة من خلال رحلتي ابن جبير وابن بطوطة – مصدر سابق – ص ١٦١–١٦٧.

٤ – انظر : ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، تحقيق د/ حسان حلاق، مكة المكرمة من خلال رحلتي ابن جبير وابن بطوطة – مصدر سابق – ص ١٥٣–١٥٧.

وعندما نطالع كتاب (المجموع الظريف في حجة المقام الشريف) لأحمد بن يحي بن عبدالغني، المعروف بابن الجيعان (ت ٨٨٥هـ)، الذي سجل وقائع رحلة الملك الأشرف قايتباي [١]، نجد صوراً ثقافية كثيرة، منها :

أنه أشار إلى دخول قايتباي مكة المكرمة وكان في استقباله القضاة والفقهاء والتجار، وذكر منهم قاضي القضاة البرهاني، ونائب القاضي الشافعي جمال الدين [٢].

كما ذكر أن الملك قايتباي ألبس صنّاع العمارة بالمدرسة الشريفة فوقانيات بطرز قريب العشرة، والشادّين الصغار توريزيات بسنجاب [٣].

كما أشار إلى مافعله من الخير والقربات والصدقات الجاريات بمدرسته التي أنشأها بباب السلام في مكة المكرمة [٤].

---

١ – ابن الجيعان، أحمد بن يحي بن شاكر بن عبدالغني ، المجموع الظريف في حجة المقام الشريف، مخطوطة بدار الكتب المصرية في ١٠٠ ورقة برقم ٨٤٥ جغرافية، وانظر : حمد الجاسر، كتاب المجموع الظريف في حجة المقام الشريف، العرب س١٠ ع ٩و١٠ الربيعان ١٣٩٦هـ ص٦٥٩–٦٩٦.

٢ – انظر : ابن الجيعان، المجموع الظريف في حجة المقام الشريف، – مصدر سابق – ورقة ٥٦ ب و٥٧ب من المخطوطة، وانظر : حمد الجاسر، كتاب المجموع الظريف في حجة المقام الشريف، – مصدر سابق – ص ٦٧٨.

٣ – انظر : ابن الجيعان، المجموع الظريف في حجة المقام الشريف، – مصدر سابق – ورقة ٦٠ من المخطوطة، وانظر : حمد الجاسر، كتاب المجموع الظريف في حجة المقام الشريف، – مصدر سابق – ص ٦٧٩. والفوقانيات والتوريزيات أنواع من الأقمشة الملبوسة .

٤ – انظر : ابن الجيعان، المجموع الظريف في حجة المقام الشريف، – مصدر سابق – ورقة ٦٧ من المخطوطة، وانظر : حمد الجاسر، كتاب المجموع الظريف في حجة المقام الشريف، – مصدر سابق – ص ٦٧٩.

كما ذكر أن الملك قرر بمكة مشايخ أربعة، من كل مذهب، ومعهم من الطلبة أربعون نفراً، يحضرون كل يوم مجتمعين، وأيام الدروس يجتمع كل شيخ مع طلبة مذهبه، ويدرس العلم .

وأشار إلى أنه جعلهم من أهل مكة، وقرر بالرباط الخلاوي الآفاقية والغرباء، وجعل عليهم شيخاً، وقرر لهم خبزاً في كل يوم .(١)

ففي هذه المقطفات الثقافية التي تناولها ابن الجيعان يمكننا أن نرى ضوءاً ساطعاً عن الحالة التعليمية في مكة المكرمة في الحقبة الزمنية التي تتحدث عنها الرحلة، وعن طريقة التدريس آنذاك، وعن تشجيع الملوك للعلم والعلماء، وإنشاء الأربطة لإيجاد موارد ثابتة ومتجددة للصرف على حلق العلم وطلابها.

وينعكس انتشار البدع وطغيانها في أدب الرحلات، فيما نجده في رحلة محمد بن أحمد القيسي، الشهير بالسِّراج، الملقب ابن مليح، المسماة (أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب)، الذي حج سنة ١٠٤٠هـ، فهي ابتداء من اسمها إلى تفصيلاتها ذات نزعة بدعية واضحة .(٢)

١ – انظر : ابن الجيعان، المجموع الظريف في حجة المقام الشريف، – مصدر سابق – ورقة ٦٧ ب و٦٨ من المخطوطة، وانظر : حمد الجاسر، كتاب المجموع الظريف في حجة المقام الشريف، – مصدر سابق – ص ٦٨١.

٢ – ابن مليح، أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب، تحقيق محمد الفاسي، نشر وزارة الثقافة والتعليم بالمغرب، فاس ١٣٨٨هـ .

ونجد الصورة الثقافية لذلك العصر واضحة في رحلة أوليا جلبي [١] – دميرجي، أوليا جلبي بن درويش محمد ظلي، الذي حج عام ١٠٨٢هـ (١٦٧١م)، حيث ذكر أوصاف مدارس مكة، وقرر أن في الحرم حين رحلته أربعين مدرسة، وصفها بأنها عظيمة، ومنها : مدرسة باب السلام، ومدرسة السلطان قايتباي، والمدارس الأربع من مآثر السلطان سليمان خان [٢].

كما تحدث عن العيون والأسبلة والعمارات الخيرية، وحمامات مكة [٣].

ووصف نساء مكة، وأطنب كثيراً في الحديث عن جمالهن، ولطفهن، وملابسهن [٤].

ووصف كتاتيب الصبيان، ودور القرآن، ودار الحديث في مكة التي ذكر أنها في أربعين مكاناً بمكة تعقد فيها الدروس [٥].

ونجد ملامح أخرى عن الثقافة العامة السائدة في مكة المكرمة من خلال رحلة عبدالغني إسماعيل النابلسي (ت ١١٤٣هـ)،

---

١ – أوليا جلبي، الرحلة الحجازية، ترجمها وقدم لها د/الصفصافي أحمد المرسي، نشر دار الآفاق العربية، ١٩٩٩م.

٢ – انظر : أوليا جلبي، الرحلة الحجازية – مصدر سابق – ص ٢٦٥–٢٦٧ .

٣ – انظر : أوليا جلبي، الرحلة الحجازية – مصدر سابق – ص ٢٦٩–٢٧٤ .

٤ – انظر : أوليا جلبي، الرحلة الحجازية – مصدر سابق – ص ٢٧٧.

٥ – انظر : أوليا جلبي، الرحلة الحجازية – مصدر سابق – ص ٢٧٨–٢٧٩ .

المسماة (الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز)، التي قام بها سنة ١١٠٥هـ، حيث تحدث عن المدارس في الحرم المكي الشريف، ومافيها من كتب موقوفة، ومآلت إليه في عصر كاتب الرحلة، كما تحدث عن عدد من العلماء والفقهاء الذين أدركهم، وأثنى على علمهم، وإن كان قد أكثر من الحديث عن المزارات والقبور، مما يدل على تدني الحالة الثقافية في مكة المكرمة آنذاك .[1]

وعندما نطالع رحلة الوزير الشرقي الإسحاقي، التي قام بها عام ١١٤٣هـ[2]، فإننا سنجد عدداً من الدلالات الثقافية، التي يمكن تبين ملامحها في النقاط الرئيسة التالية :

١ = " أنه كان في مصاحبتها وفد يتكون من بعض العلماء والموظفين الذين وثق ملك المغرب في علمهم وأخلاقهم وحصافة عقولهم ".[3]

٢ = دلالتها على " ماكان للمغاربة من العناية بمختلف الفنون والعلوم، ومن التشوق إلى الاطلاع على أحوال أخوانهم المسلمين، وتتبع أخبارهم، وعاداتهم وتسجيلها تسجيلاً يفيد الذين يرغبون في التوجه

---

١ – انظر : عبدالغني إسماعيل النابلسي، الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز، إعداد أحمد هريدي، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م، ص ٤٥٠–٤٥٢ .

٢ – حمد الجاسر، رحلة الوزير الشرقي الإسحاقي إلى الحجاز، العرب س٢٠ ع ٩و١٠ الربيعان ١٤٠٦هـ.

٣ – حمد الجاسر، رحلة الوزير الشرقي الإسحاقي إلى الحجاز، – مصدر سابق –، تعليقات الأستاذ محمد بن عبدالعزيز الدباغ محافظ خزانة جامعة القرويين في مدينة فاس، ص٦٥٢ .

للحج، سواء من الناحية الجغرافية، أو التاريخية، أو الأدبية، أو العلمية، أو غير ذلك من مختلف الأحوال الثقافية المفيدة " (١)

٣ = " برع الإسحاقي في تدوين مختلف المراحل، وأبدى عناية فائقة بكثير من الدقائق العلمية والأدبية، وأكثر من نقل الأشعار، ومن نقل النصوص العامة، المتعلقة بوصف الأقاليم، أو بوصف بعض المزارات، مما يدل على أن الكتاب كان يجمع بين الطريف والتليد " (٢)

٤ = الإسحاقي من خلال رحلته كان " يدعو إلى الفهم والتأمل وسعة الخاطر مع الاعتزاز بالكرامة النفسية، والافتخار بالهمة الذاتية، فليس هناك مايفسد العلم مثل الحفظ الآلي، الذي لايكون معه تدبر، ولاقدرة على المناقشة والمعارضة، وحضور البديهة " (٣)

وفي هذا دلالة أكيدة على نمط البيئة الثقافية السائدة في عصره، وتحسره على هذا النمط، ودعوته إلى تعديله .

٥ = " الإسحاقي كان كثير الاهتمام بالشؤون الثقافية، وكانت له عناية بذكر الأشعار، وتدوين بعض الأخبار المتصلة بشؤون

١ – حمد الجاسر، رحلة الوزير الشرقي الإسحاقي إلى الحجاز، – مصدر سابق –، تعليقات الأستاذ محمد بن عبدالعزيز الدباغ محافظ خزانة جامعة القرويين في مدينة فاس، ص٦٥٢.

٢ – حمد الجاسر، رحلة الوزير الشرقي الإسحاقي إلى الحجاز، – مصدر سابق –، تعليقات الأستاذ محمد بن عبدالعزيز الدباغ محافظ خزانة جامعة القرويين في مدينة فاس، ص٦٥٣.

٣ – حمد الجاسر، رحلة الوزير الشرقي الإسحاقي إلى الحجاز، – مصدر سابق –، تعليقات الأستاذ محمد بن عبدالعزيز الدباغ محافظ خزانة جامعة القرويين في مدينة فاس، ص٦٥٨.

الفكـر، سـواء أكانـت مرتبطـة بالإطـار الفقهـي، أو بالإطـار التـاريخي، أو بالإطار الاجتماعي "[1]

٦ = " لاتـستطيع إشـارة عـابرة أن تحـدد جميـع ماكـان يـثير اهتمـام الـوزير الإسـحاقي أثنـاء رحلتـه، إلا أن الطـابع العلمـي، والتـاريخي، والتربـوي، لايمكـن إهمالـه ؛ ذلـك أن الإسـحاقي كـان يجـد لـذة في الإشـارة إلى ذلـك، ومتعـة في التعليـق علـى مـايرتبط بهـذه الاتجاهات "[2]

٧ = في رحلـة الـوزير الإسحاقـي إشـارات واضـحة إلى علـم الأثبـات[3]، وعنايـة فائقـة بـه، ومـن ذلـك إشـارته إلى أن مفـتي الحنفيـة كتـب لـه سـنده المتـصل عـن شـيوخه، وشـيوخ شـيوخه إلى أبـي قـابوس مـولى عبـدالله بـن عمـرو بـن العـاص، عـن عبـدالله بـن عمـرو، عـن الـنبي ﷺ، مما يؤكد عناية العلماء بهذا الفن في عصر كاتب الرحلة .[4]

---

١ – حمـد الجاسـر، رحلـة الـوزير الـشرقي الإسـحاقي إلى الحجـاز، – مـصدر سـابق –، تعليقـات الأسـتاذ محمد بن عبدالعزيز الدباغ محافظ خزانة جامعة القرويين في مدينة فاس، ص٦٥٣.

٢ – حمـد الجاسـر، رحلـة الـوزير الـشرقي الإسـحاقي إلى الحجـاز، – مـصدر سـابق –، تعليقـات الأسـتاذ محمد بن عبدالعزيز الدباغ محافظ خزانة جامعة القرويين في مدينة فاس، ص٦٧١.

٣ – الأثبات : جمع ثَبَت – بفتح أوله وثانيه – والثبت في اللغة كما عرفـه الزبيدي في تاج العروس٥٣٤/١ (هو الفهرس الذي يجمع فيه المحدث مروياته وأشياخه) وفي الاصطلاح هو ماعرفه به الإمام ابن حزم الأندلسي – الفِصَل في الملل والأهواء والنحل ٢٢١/٢– بقوله : (نقل الثقة عن الثقة حتى يبلغ به النبي ﷺمع الاتصال يخبر كل واحد باسم الذي أخبره ونسبه وكلهم معروف الحال والعين والعدالة والزمان والمكان)، غير أن هذا العلم برغم أهميته الثقافية المتميزة في حياة الأفراد بل الأمة بأسرها ؛ فإنه يعد من أصعب العلوم، ولذا كان العارفون فيه قليل والمبدعون له أقل ؛ لما يحتاجه من قدرات التتبع والفهم وتمييز الأحكام والأشخاص، ولصعوبة تبعاته وتنوع مجالاته.

٤ – انظر : حمد الجاسر، رحلة الوزير الشرقي الإسحاقي إلى الحجاز، – مصدر سابق –، ص٦٧٥.

٨ = عندما نتوغل في قراءة ماكتبه الإسحاقي، وفي تحليل أبعاده سنجد أنه جمع بين روح الأديب وعقل العالم، يظهر ذلك من أسلوبه الساخر في تدوين قصة ذلك الرجل، الذي أراد أن يسترزق من الوفد المغربي بالشعر.[(١)]

٩ = في مكة المكرمة اتصل الوزير الإسحاقي بعدد من العلماء والفضلاء، من المالكية والحنفية والشافعية والحنابلة، ممايدل على تنوع المشارب الفقهية، ونشاط الحركة الفكرية؛ نتيجة تعدد الحلقات العلمية في الحرم الشريف آنذاك.

وممن لقيه وأظهر فضله الشيخ محمد الطبري شيخ المقام الحنبلي، والشيخ تاج الدين مفتي الحنفية، وأخذ عنه بعض المسلسلات، والشيخ عمر البار الحسيني، والحافظ أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عقيلة المكي، الذي أشار إلى عدد من تآليفه، وذكر أنه نال منه الإجازة في رواية مسلسلات.[(٢)]

١٠ = تحدث الوزير الإسحاقي عن المشاعر – عرفات ومنى ومزدلفة – وعن الأحكام المتعلقة بها، وعن الأحاديث الواردة فيها، ونقل أقوال العلماء في مواضعها ومسمياتها، ووقت الصلاة فيها،

---

١ – انظر القصة كاملة: حمد الجاسر، رحلة الوزير الشرقي الإسحاقي إلى الحجاز، – مصدر سابق –، تعليقات الأستاذ محمد بن عبدالعزيز الدباغ محافظ خزانة جامعة القرويين في مدينة فاس، ص٦٥٩.

٢ – انظر: حمد الجاسر، رحلة الوزير الشرقي الإسحاقي إلى الحجاز، – مصدر سابق –، تعليقات الأستاذ محمد بن عبدالعزيز الدباغ محافظ خزانة جامعة القرويين في مدينة فاس، ص٦٧٣–٦٧٥، وانظر فيمن لقيهم الوزير الإسحاقي بمكة: حمد الجاسر، رحلة الوزير الشرقي الإسحاقي إلى الحجاز، العرب س٢٠ ع ٧و٨، محرم وصفر١٤٠٦هـ، ص٥٢٨–٥٣٧.

وأقوال العلماء في موقف عرفات، والجمرات، وأسماء مكة، ومااورد في تاريخها، والكعبة وماقيل فيها .(١)

١١ = غشيت الرحلة سحابة التعابير الأدبية الجميلة، التي كانت تظلل السائر في مراحلها، وحسبي أن أضرب مثالين ممالـه علاقة بالجوانب الثقافية لمكة المكرمة .

المثال الأول : عندما تحدث عن ثقافة الحوار السائدة في عصره، التي لاتقبل التسليم للطرف الآخر مهما كان الحق، حيث كتب في رحلته : " سلطان مكة السلطان عبدالله – أصلحه الله –، وهو الذي حجز ابني أميري الحج المصري والشامي، في أيهما يقف أولاً، وأيهما لاينفر أولاً، حتى كادت عِياب الود بينهما تصفر، حتى توافت سماسرة الفتنة، من الفريقين، وسلم الله ذلك الجمع السالم من التغيير، والتكسير" (٢)

والمثال الثاني : عندما تحدث عن ثقافة التعامل مع إحرام الكعبة بالتشمير، فكتب عن ذلك يقول : "شمرت أستار الكعبة إلى نحو قامة ونصف القامة من الجدار، من الجوانب الأربعة، ويسمون ذلك إحراماً لها، فيقولون : أحرمت الكعبة، وبهذا جرت العادة دائماً في أيام الحج، ولاتفتح من حين إحرامها إلا بعد الوقفة، فكان ذلك التشمير إيذاناً بالتشمير للسفر، وإيذاناً بقرب

---

١ – انظر : حمد الجاسر، رحلة الوزير الشرقي الإسحاقي إلى الحجاز، العرب س٢٠ ع ١و٢، رجب وشعبان ١٤٠٥هـ، ص ١٠٨–١١٠.

٢ – حمد الجاسر، رحلة الوزير الشرقي الإسحاقي إلى الحجاز، – المصدر السابق –، ١١١.

وداعها ، لاجعله الله آخر وداع " [(١)]

١٢ = في رحلة الوزير الإسحاقي عدد من اللطائف المتعلقة بالجوانب الثقافية السائدة في عصره، وحسبي أن أورد مثالين منها .

المثال الأول : عندما تحدث عن العراك على موارد الماء بالعصي والسيوف، حتى إنه رأى طفلاً صغيراً يتلوى من العطش، فأخرج دينار ذهب ليشتري له به ماء فلم يجده، ثم ذهب إلى أمير الحج المصري فوجده يسقي إبله، وهو يعرفه، وطلب منه الماء للطفل فلم يجبه، وتعجب من هذه المفارقة، أن يقدم سقي الإبل على إغاثة الإنسان، ثم تحدث عن ثقافة هذه الطائفة بأسلوب ماتع . [(٢)]

المثال الثاني : عند حديثه عن الذين يتساهلون في فريضة الصلاة، والوضوء ؛ بحجة السفر، وعن الذين يسافرون إلى الحج بقصد الخدمة والاتجار فحسب، حتى تحول الحج عندهم إلى صفقة بأجرة معلومة، ثم استطرد في ذم هذه الطائفة وبيان حرمانها من الثقافة الدينية الصحيحة . [(٣)]

وفي جانب ثقافي آخر نجد أن محمد صادق باشا (ت ١٩٠٢م) في رحلته المسماة (الرحلات الحجازية)، التي قام بها عام ١٢٩٧هـ [(٤)] ،

---

١ – حمد الجاسر، رحلة الوزير الشرقي الإسحاقي إلى الحجاز، – المصدر السابق –، ١١٣.

٢ – انظر : حمد الجاسر، رحلة الوزير الشرقي الإسحاقي إلى الحجاز، العرب س٢٠ ع ٣و٤، رمضان وشوال ١٤٠٥هـ، ص ٢٦٦.

٣ – انظر : حمد الجاسر، رحلة الوزير الشرقي الإسحاقي إلى الحجاز – مصدر سابق – ص ٢٦٧.

٤ – محمد صادق باشا، الرحلات الحجازية، إعداد محمد همام فكري، دار بدر للنشر.

أشار إلى أن وراء زمزم قبتين إحداهما محل للمؤقت، والأخرى خزانة للكتب [١]، كما أشار إلى العملات المستخدمة في مكة المكرمة [٢]، والخدمات الطبية المقدمة لتثقيف الحجاج [٣]، كما تحدث عن أدعياء الطب من الأعراب وشيوع ثقافتهم الدوائية التي سببت كثيراً من المشكلات والمآسي، بسبب التحايل وادعاء التطبيب من أجل الارتزاق [٤].

ووصف الثقافة العمرانية في زمن رحلته، من حيث طراز أبنية مكة المكرمة، ودكاكينها [٥]، كما وصف عادات الزواج فيها [٦]، ووصف عادات أهلها بعد انتهاء موسم الحج، وسجل بعض غرائب عاداتهم [٧].

وفي رحلة محمد بن عثمان السنوسي (ت ١٣١٨هـ) المسماة (الرحلة الحجازية) [٨]، التي قام بها عام ١٢٩٩هـ نجد إضاءات واضحة حول الجوانب الثقافية، حيث عُنِيَ كاتب الرحلة بما يجري في مكة من نشاط علمي وثقافي، واستوقفه طويلاً تشابه طريقة التدريس

---

١ – انظر : محمد صادق باشا، الرحلات الحجازية – مصدر سابق – ص١٠٦ .

٢ – انظر : محمد صادق باشا، الرحلات الحجازية – مصدر سابق – ص١٠٧.

٣ – انظر : محمد صادق باشا، الرحلات الحجازية – مصدر سابق – ص١١٢.

٤ – انظر : محمد صادق باشا، الرحلات الحجازية – مصدر سابق – ص١١٦–١١٧.

٥ – محمد صادق باشا، الرحلات الحجازية – مصدر سابق – ص ١٧٨.

٦ – انظر : محمد صادق باشا، الرحلات الحجازية – مصدر سابق – ص ١٨٠.

٧ – انظر : محمد صادق باشا، الرحلات الحجازية – مصدر سابق – ص٢٠١–٢٠٣.

٨ – محمد بن عثمان السنوسي، الرحلة الحجازية، تحقيق علي الشنوفي، الشركة التونسية للتوزيع، ط١، ١٤٠١هـ.

في الحرم المكي مع طريقة التدريس في تونس، من حيث إلقاء المسألة، ثم تطبيقها على الكتاب .(١)

كما نبه السنوسي إلى الثقافة اللغوية عند أهل مكة، ذاكراً أن شجون الحديث تدعوه إلى ذكر مارأى عليه علماء الحجاز من عنايتهم بعدة لغات، " أكثرها عندهم اللسان التركي، الذي هو لسان الدولة العلية، واللسان الفارسي ؛ لكمال امتزاجه باللسان التركي، واللسان الهندي ؛ لكثرة الوافدين من الهند، واللسان الحبشي، ولسان أهل جاوة، وهاته الألسن زيادة على اللسان العربي الأصلي في جزيرة العرب " (٢)

وتعجب من أن العلماء في الحجاز " يقرئون العلوم الدينية والآلية احتساباً، وليس لواحد منهم معاش عن ذلك من أموال بيت المسلمين، ولامن إدارة الأوقاف، بحيث إنه لاجراية على التدريس، ولا للمدارس أصلاً مع أن صنف العلماء لامحالة مستحق من بيت المال" (٣)

كما تناول في رحلته الثقافة الطبية في الحجاز، فتحدث عن الحجز الصحي، واستفاض في الحديث عن مسألة انتقال العدوى، وعن ثقافة الطبيب، عند تناوله قضية التعجيل بحياة المريض، وإهانة المرضى .(٤)

---

١ – محمد بن عثمان السنوسي، الرحلة الحجازية، تحقيق علي الشنوفي – مصدر سابق – ص١٧٨.

٢ – محمد بن عثمان السنوسي، الرحلة الحجازية – مصدر سابق –ص٢٥٧.

٣ – محمد بن عثمان السنوسي، الرحلة الحجازية – مصدر سابق –ص٢٢٣.

٤ – انظر : محمد بن عثمان السنوسي، الرحلة الحجازية – مصدر سابق –ص٢٧٦.

وفي رحلة محمد بن صالح الجودي القيرواني (ت ١٣٦٥هـ)، المسماة (رحلة التميمي التونسي إلى الحج) [١] نجد توضيحاً أكثر وبياناً أوفى عن تلك الحالة الثقافية، حيث ذكر كثيراً من المواضع والآثار في مكة المكرمة، وأشار إلى تنفيذ حد قطع يد السارق في سارقين، وحد القتل في قاتل . [٢]

وأشار بصراحة إلى ما اتصف به ذلك العصر في العالم الإسلامي من جمود فكري، وهيمنة للبدع والخرافات على كثير من عقول المنتسبين للعلم في البلاد الإسلامية، ومنها المدينتان الكريمتان مكة المكرمة والمدينة . [٣]

ونجد أن إبراهيم رفعت باشا قد سجل انطباعاته عن جوانب ثقافية في مكة من خلال رحلاته الأربع في الأعوام ١٣١٨، ١٣٢١، ١٣٢٠، ١٣٢٥هـ، المسماة (مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية) [٤]، لافتاً النظر إلى بعض عادات المكيين بعد موسم الحج . [٥] كما تحدث عن آثار مكة المكرمة ومساجدها القديمة،

---

١ – حمد الجاسر، رحلة التميمي التونسي إلى الحج، العرب س١٦ ع ٣و٤، رمضان وشوال ١٤٠١هـ، وعدد ٧و٨ محرم وصفر ١٤٠٢هـ.

٢ – انظر : حمد الجاسر، رحلة التميمي التونسي إلى الحج – مصدر سابق – العرب ع ٣و٤، رمضان وشوال ١٤٠١هـ، ص ٢٥٤–٢٥٧.

٣ – انظر : حمد الجاسر، رحلة التميمي التونسي إلى الحج – مصدر سابق – العرب ع ٧و٨، محرم وصفر ١٤٠٢هـ، ص ٥٦٠.

٤ – إبراهيم رفعت باشا ، مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية، دار الكتب المصرية، ط١ القاهرة، ١٣٤٤هـ.

٥ – إبراهيم رفعت باشا ، مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية – مصدر سابق – ص٦٣.

وعن أمرائها منذ فتحها إلى زمن الرحلة .[١]

ولرحلة محمد لبيب البتنوني (ت ١٣٥٧هـ)، المسماة (الرحلة الحجازية)[٢] ، التي قام بها برفقة عباس حلمي باشا خديوي مصر سنة ١٣٢٧هـ أهمية ثقافية ؛ لكثرة ماتناول فيها من جوانب ثقافية متنوعة، فقد تناولت رحلته الحديث عن عوائل مكة، ولغتهم[٣] ، والتلغراف والبريد، وحمامات مكة[٤] ، وتحدث عن مطبعة مكة، وجرائدها، ومكتباتها، ومدارسها، وطريقة التدريس في الحرم، والنقود المستخدمة آنذاك .[٥]

كما تحدث عن شيخ الحرم، وأئمته، وخطبائه، والآثار في مكة .[٦]

ورحلة الشيخ محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ)، المسماة (رحلة الحجاز)[٧] ، التي قام بها سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة وألف من الهجرة النبوية الشريفة يتبين منها أن الشيخ ومن أجل الاستعداد لسفر الحج أشغل نفسه بتأليف رسالة في المناسك يبين فيها أحكامه

---

١ – انظر : إبراهيم رفعت باشا ، مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية –مصدر سابق – ص٣٢٥–٣٥٦.

٢ – محمد لبيب البتنوني، الرحلة الحجازية، مكتبة الثقافة الدينية بمصر، ١٤١٥هـ .

٣ – انظر : محمد لبيب البتنوني، الرحلة الحجازية – مصدر سابق – ص ١٢١–١٢٣.

٤ – انظر : محمد لبيب البتنوني، الرحلة الحجازية – مصدر سابق – ص ١٣١–١٣٢.

٥ – انظر : محمد لبيب البتنوني، الرحلة الحجازية – مصدر سابق – ص ١٣٢–١٣٥.

٦ – انظر : محمد لبيب البتنوني، الرحلة الحجازية – مصدر سابق – ص ١٦٢–١٧٦.

٧ – محمد رشيد رضا، رحلات الإمام محمد رشيد رضا – الرحلة الحجازية، جمع د/يوسف إيبش، نشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت، ط٢، ١٩٧٩م .

وحِكَمَه بعبارة سهلة مأخوذة مما صح في السنة ليحملها معه هدية للحجاج الذين يصحبهم ويلقاهم فجاءت في أكثر من كراستين إلا أن الوقت ضاق على تصحيحها وطبع كمية كبيرة منها فاكتفى بحمل مئات منها .

كما تحدث عن بعض الفضلاء من الفقهاء والأدباء الذين صحبهم في رحلته ووصف مجالسه معهم، كما وصف أصحاب الطرق البدعية في الذكر والغناء والذين ينادون بعض الأموات من الأولياء ومن هؤلاء أحد أهل الطريق المتصنعين الذين يراءون الناس بلحاهم وثيابهم وحركاتهم وأصواتهم فتلطف في وعظه وإقناعه بترك ذلك الصياح ولكنه أقلَّ منه ولم يتركه البتة .(١)

وأشار إلى الشيخ محمد نصيف والفضلاء الذين قابلهم، ثم دوَّن في سجلات رحلته كلاماً أدبياً وحكماً بليغة في بيان أسسِ العلاقة بين الناس وأهمية التمسك بالحق على مايصيب المتمسكَ به من الأذى وفضلِ الاتباع على الابتداع والأخذ من الحضارات الوافدة .(٢)

ودوَّن كلماتٍ جميلةً عن الحالة الروحية عند أداء المناسك والمعاني الإيمانية والتربوية والآثارِ البدنيةِ للحج، وعن حِكَمِ الطواف والسعي، وعن بعض الأحكام الفقهية المهمة، مما يدل على سعة علم الرجل وفقهِه وقوةِ بيانِه .

---

١ – انظر : محمد رشيد رضا، رحلات الإمام محمد رشيد رضا – الرحلة الحجازية –مصدر سابق – ص ١٠٦–١١٢ .

٢ – انظر : محمد رشيد رضا، رحلات الإمام محمد رشيد رضا – الرحلة الحجازية –مصدر سابق – ص ١١٩–١٢٠، وص ٢١٠ .

فكان مما قاله : فلما عادوا – أي المشيعين له – من جدة، وولى النهار بأنسه وبهائه، وأقبل الليل بوحشته وظلماته هدأت المشاعر وقرت النواظر وخشعت السرائر وتزاحمت الخواطر، فكان الغالبُ منها على الفكر والقلب مايثيره تأثير الزمان والمكان وزِيّ الإحرام في النفس، فأما الزمان فشهرُ ذي الحجةِ المحرم، وأما المكانُ فهوالطريقُ إلى بيتِ اللّهِ الحرام، وأما زِيُّ الإحرامِ فهو الذي كان يتزيّا به إبراهيمُ خليلُ اللّه وإسماعيلُ ذبيح اللّه ومحمدٌ خاتَمُ رسلِ اللّه .

ثم يمضي في وصف حالته البدنية والروحية ليقرر بعد ذلك قائلاً : تلك التلبيةُ تملأ قلبَ متدبِّرها إيماناً وتوحيداً وتُجَرِّدُهُ من الحظوظ والأهواء تجريدا وتُعِدُّهُ لزيارة بيت اللّه والطواف وهو في أحسن حال وأتم استعداد .

وهو يكرر هذه المعاني والتأملات في كل موضع من مواضع أداء نسكه في بيانٍ بديع وحِكَمٍ بليغة مؤثرة تجعل الإنسان كما يقول يدخل الحرم المقدس طاهر القلب والبدن من الحدث والدنس .(١)

مبرزاً أهميةَ تعظيمِ الرب سبحانه وتعالى في أعمال المناسك ولافتاً النظر إلى فائدةِ وجود المشاعرالمقدسة لتحقيق هذا التعظيم منبهاً إلى السنن الشرعية التي صحت عن النبي ﷺ في كل موضع ولاسيما في التلبية والطواف والسعي حتى يقول : فمن سعى بين الصفا والمروة عالماً بما ذكرتُ متذكراً معتبراً به فإنه يشعر في قلبه بنماء

١ – انظر : محمد رشيد رضا، رحلات الإمام محمد رشيد رضا – الرحلة الحجازية –مصدر سابق – ص ١٣٠–١٣٢ .

الإيمان بالله وبرسل الله ويفهم سر قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الصفا والمروةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [١] .

ثم تحدث عن ثقافة السكان في التعامل مع نقص المياه مشيراً إلى مصنع الثلج المتعطل وتجميد الهنودِ الماءَ في قوالبَ من الزنك لبيعها على الحجاج بأثمان عالية ، لينقل الحديث في تدوين رحلته بعد ذلك إلى الجوانب الأدبية متحدثاً عن أيام منى ولياليها مبرزاً نصوصَ الشرع والأحكامَ الفقهيةَ المتعلقةَ بها أولاً ثم أقوال الشعراء فيها ثانياً مع توسع في المدلولات اللغوية ومعانيها منبهاً إلى أن أيام منى في الإسلام من أطيب أيام الحياة لما فيها من الجمع بين اللذات الروحية والبدنية والاجتماعية [٢] .

وأعلن استياءه من ظاهرة التسول التي تدل على ثقافة متدنية [٣] .

ومن منطلق آخر أبرزت رحلة سعد بن أحمد الربيعة ، المسماة (رحلة الحاج من بلد الزبير بن العوام إلى البلد الحرام) [٤] ، التي قام بها سنة ١٣٤٥هـ إضاءات ثقافية في زمنها ؛ حيث كتبها بأسلوب أدبي

---

١ – سورة البقرة، الآية ١٥٨.

٢ – انظر : محمد رشيد رضا ، رحلات الإمام محمد رشيد رضا – الرحلة الحجازية –مصدر سابق – ص ٢٠٦–٢٠٧ .

٣ – انظر : محمد رشيد رضا ، رحلات الإمام محمد رشيد رضا – الرحلة الحجازية –مصدر سابق – ص ١٣٠–١٣٢ .

٤ – سعد بن أحمد الربيعة ، رحلة الحاج من بلد الزبير بن العوام إلى البلد الحرام، إعداد : سعود بن عبدالعزيز الربيعة ، نشر دارة الملك عبدالعزيز بالرياض عام ١٤٢٤هـ .

رائع ولاسيما حديثه عن طبيعة انفعالاته، بل وعن انفعالات الشرقيين عموماً، ولم يخل حديثه من الدعابة المحببة كوصفه تكالب القوم على القهوة ومامعها بأنه مثل تداعي الأمم الاستعمارية على مواطن الضعفاء ! [١]

وبرزت ثقافة المؤلف الجغرافية من استعانته بأدوات علمية لقياس درجة الحرارة [٢]، ومن خلال وصف ما رآه من جبال وأودية ورياح وأمطار وغيرها وصفاً دقيقاً ومؤثراً، كما هو واضح من وصفه مواطن الجمال التي تخلب الألباب في الدهناء التي دخلوها من معبر الخريمة، وصراحته في تلبية رغبته في التمرغ على رمالها الذهبية والتلال المكسوة بالكلأ النظير، وقضاء لبانته منها، ومن وصفه جريان رمال النفود على الأرض جريان الماء في النهر . [٣]

وفي وصفه لمناسك الحج ومشاعره أوضح ماكانت عليه الحال من الزحام والضنك الشديد والخوف من الإبل العابرة وشدة الحر وهجمة البعوض والروائح الكريهة المنبعثة من اللحوم الملقاة هنا وهناك وجيف الكلاب والهررة، مما يوحي بطبيعة الثقافة السائدة آنذاك. [٤]

---

١ – انظر : سعد بن أحمد الربيعة، رحلة الحاج من بلد الزبير بن العوام إلى البلد الحرام – مصدر سابق – ص٢٠– ٢١.

٢ – انظر : سعد بن أحمد الربيعة، رحلة الحاج من بلد الزبير بن العوام إلى البلد الحرام – مصدر سابق – ص٢٢.

٣ – انظر : سعد بن أحمد الربيعة، رحلة الحاج من بلد الزبير بن العوام إلى البلد الحرام – مصدر سابق – ص٣٧.

٤ – انظر : سعد بن أحمد الربيعة، رحلة الحاج من بلد الزبير بن العوام إلى البلد الحرام – مصدر سابق – ص٨٢–٨٣.

وكان أشد ما آلمه وقطع قلبه أسى وحسرة وأبدع في وصفه أيما إبداع، وهو مما يتعلق بثقافة الناس منظر الخلائق التي لاتعد ولاتحصى على تباين صورهم وأجناسهم لاترى منهم واحداً عليه سيماء الخشوع والرهبة وهم يؤدون مناسكهم، بل كلهم كأنهم في أشغال خصوصية، والكل منهم يتهالك على قضاء شغله ويتذرع لقضائه بكل الطرق حسنها وقبيحها، فترى القوي يدفع الضعفاء والشيوخ والعجزة ولايبالي بمصيرهم، حالة يبكي عليها الإسلام ويسأل المصلحون إصلاحها .[1]

حرص المؤلف على القيام بمسح شامل للحرم في تاريخ الرحلة متحدثاً عن أطواله ومشتملاته وسقايف المذاهب الفقهية التي يصلي فيها إمام كل مذهب إلى أن جمعهم الملك عبدالعزيز على إمام واحد .

وتناولت رحلة الأمير شكيب أرسلان، المسماة (الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف)[2]، التي قام بها عام ثمانية وأربعين وثلاثمائة وألف من الهجرة الموافق لعام ثلاثين وتسعمائة وألف من الميلاد جوانب ثقافية مهمة .

تحدث المؤلف عن مكة المكرمة من حيث صفتُها الحسية ومكانتها المعنوية وكعبتها البهية وهوى القلوب إليها من جميع البرية

---

١ – انظر : سعد بن أحمد الربيعة، رحلة الحاج من بلد الزبير بن العوام إلى البلد الحرام – مصدر سابق – ص٨١–٨٢.

٢ – شكيب أرسلان، الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف، نشر مكتبة المعارف بالطائف بتعليق محمد رشيد رضا وعبدالرزاق محمد سعيد كمال عام ١٣٩٧هـ.

ورزقهـا مـن جميـع الأغذيـة والثمـرات اسـتجابة لـدعاء إبـراهيم ﷺ، وفي هـذا السياق أشـار المؤلـف إلى أن المجلـوبَ لمكـةَ مـن أصـناف الحبـوب والخـضروات والفواكـه والمحمـول إليهـا مـن البـضائع والمتـاجر والملابـس والفـراش والريـاش والطيـب وغـير ذلـك يفـوق مايجلـب إلى عـشر مـدن مـن أمثالهـا في عـدد الـسكان وربمـا أكثـر، ولايكـاد الحـاج يـشتهي شـيئاً إلا ويجـده في هـذه البلـدة القاحلـة، ثـم تحـدث عـن مـصادر الميـاه في مكـة، ولاسـيما عـن آبارهـا منـذ عهـد الجاهليـة، وعـن عـين زبيـدة، وعـن عـين الزعفـران، وعـن معانـاة الحجـاج عنـد طلـب المـاء، حتـى جـاء عهـد الملـك عبدالعزيز فزادت سبل الماء وأنشأ مصنعين للثلج بمكة[(١)].

ثـم تحـدث عـن الحـر في مكـة، وأنـه نوعـان، أحـدهما الومـد وهـو الحـر الـشديد مـع انقطـاع الـريح، والثـاني الـسموم وهـو الـريح الحـارة وهـذه الـريح إذا اتقاهـا الإنـسان بمنـشفة مبلولـة بالمـاء أو بحـصير مرشـوش بالمـاء معلق فوق باب أو نافذة تحولت إلى باردة.

وألمـح بفهـم عميـق وتحليـل سـديد إلى فائـدة هـذه الحـرارة وأنهـا لحكمـة إلهيـة عظيمـة أنهـا تقتـل بـشدتها الجـراثيم المـضرة في موسـم اجتماع الناس[(٢)]

وفي دعـوة للانفتـاح علـى الثقافـات الأخـرى أشـار إلى ضـرورة بـذل

١ – انظر : شكيب أرسلان، الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف، – مصدر سابق – ص٤٤–٤٩.

٢ – انظر : شكيب أرسلان، الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف، – مصدر سابق – ص٥٠.

الجهد لتخفيف حرارة الأماكن الصحراوية كما فعل الأوروبين في بلادهم الصحراوية المماثلة للمناطق الحجازية بما أسالوا إليها من مياه وماغرسوا فيها من أشجار وماأحدثوا من مروج خضراء، واقترح حفر آبار ارتوازية في صحراء عرفة ومزدلفة ومنى تمهيداً لتشجيرها منبهاً إلى طبيعتها الجيولوجية القابلة لهذا، مستشهداً بما جاء في معجم البلدان عن آبار عرفة ورياضها وغياضها وسقاياتها وحياضها ومزارعها.(١)

وتحدث عن ذات عرق مستشهداً بماقيل عنها في كتب البلدانيات وعن سوق عكاظ وماقيل فيها نثراً وشعراً وعن أسواق العرب .(٢)

ورحلة الأمير شكيب أرسلان مليئة بالمعلومات الجغرافية والتاريخية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية واللغوية والأدبية بل وتحدث عن عدد من القبائل العربية وماتمتاز به كل قبيلة ومنازلها وعلاقاتها بغيرها من القبائل الأخرى .(٣)

ومن الرحلات التي اصطبغت بصبغة أدبية جميلة ؛ رحلة غلام رسول مهر لأداء الحج، المسماة (يوميات رحلة في الحجاز)(٤) ، التي

١ – انظر : شكيب أرسلان، الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف، – مصدر سابق – ص٥٤–٥٦.

٢ – انظر : شكيب أرسلان، الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف، – مصدر سابق – ص١٤٨–١٥٠.

٣ – انظر : شكيب أرسلان، الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف، – مصدر سابق – ص٣٢٩–٣٤٠.

٤ – غلام رسول مهر، يوميات رحلة في الحجاز، ترجمة د/ سمير عبدالحميد إبراهيم، نشر دارة الملك عبدالعزيز بالرياض عام ١٤١٧هـ .

قام بها عام ثمانية وأربعين وثلاثمائة وألف من الهجرة، فقد وصف بأسلوب بديع منظر الحجاج فوق السفينة وهم يسارعون إلى ارتداء ملابس الإحرام والتجهز له والتلبية مع خيوط الصباح الأولى من ذلك اليوم استعداداً للحدث المشهود، واستوقفه مشهد الرؤوس العارية والأجساد الملفوفة بالبياض والألسنة اللاهجة بالدعاء، وترك العنان لخلجات نفسه في تلك اللحظات تأثراً بالمشهد الماثل أمامه، وتعبيراً عن أهميته الإيمانية والتربوية والنفسية فقال : " هناك الكثير من المعلومات يعرفها الناس عن الإحرام لكن المعلومات التي تأتي في ذهن المحرم نفسه المشارك مع جماعة المحرمين لايعرفها إلا من يخوض تجربة الإحرام ذاتها، وأدعو الله أن يوفق كل مسلم على وجه البسيطة إلى أن يمر بهذه المرحلة المقدسة مرة واحدة على الأقل في حياته فبدون هذا الأمر لايمكن أن يفهم المكانة المركزية لبيت الله الحرام والسر الحقيقي لعظمة اجتماع هذا الدين القيم " (١)

يقصد أنه يتمنى أن يتمكن كل مسلم من أداء هذا الركن العظيم ليستشعر آثاره العظيمة في وحدة الأمة الإسلامية، وثقافتها، وفي تطبيق المساواة الحقيقية بين المسلمين .

وأشار إلى أن عدداً كبيراً من الحجاج القادمين بالبواخر كانوا ينتقلون من جدة إلى مكة مشياً على الأقدام ووصفهم بأنهم سلسلة بشرية على طول الطريق لم تنقطع حتى وصولهم إلى مكة، وأوضح شيئاً عن ثقافتهم فذكر أنهم يلجأون إلى قمم الجبال للراحة ويسندون عسيب النخل أو بعض فروع الشجر إلى الصخور أو الأحجار

---

١ – غلام رسول مهر، يوميات رحلة في الحجاز – مصدر سابق – ص٤٤ .

ثم يضعون فوقها الملابس لتظلهم فكانت هذه هي خيمتهم .[(١)]

وفي رحلة غلام رسول مهر دعابة محببة تجذب القارىء إليها ، فهو مثلاً حينما آوى إلى فراشه لم يستطع النوم بسبب البعوض فيقول بأسلوب أدبي ساخر: " لم نكد نشعر بلذة النوم حتى هوجمنا بجيش من البعوض لم أتذكر شاعر الأردية ذوق ولم أكن أبداً بحاجة إلى أن أتذكره وطبقاً لقول العلامة أبي الكلام أزاد إن أشعار ذوق بعيدة عن ذوقنا تماماً، لكن حملة البعوض هذه جعلتني رغماً عني أتذكر قول الشاعر ذوق :

أهناك من يتعلم طبع الشجاعة من البعوض

حين يأتي لمص الدماء يطنطن في البداية البعوض"[(٢)]

ثم تحدث غلام في تسلسل أحداث رحلته عن عدد من الأعلام من العلماء، والتجار، والإعلاميين، وباعة الكتب، والكتب التي تباع عند باب السلام آنذاك .[(٣)]

ووصف بعد ذلك ذهابه إلى الملك عبدالعزيز عند لقائه بكبار الشخصيات في الحج وعبر عن عميق تأثره بالكلمات الإيمانية والبراعة الخطابية لمدة ساعة كاملة التي تجلت في افتتاح الملك عبدالعزيز ذلك اللقاء، وركزت على ضرورة وحدة المسلمين جميعاً

---

١ – انظر : غلام رسول مهر، يوميات رحلة في الحجاز – مصدر سابق – ص٤٩–٥٠ .

٢ – غلام رسول مهر، يوميات رحلة في الحجاز – مصدر سابق – ص٥٢ .

٣ – انظر : غلام رسول مهر، يوميات رحلة في الحجاز – مصدر سابق – ص٥٣–٥٤ .

عربهم وعجمهم وضرورة الالتزام بالعزة بالله وحده دون الخوف من بشر أياً كان .(١)

ثم عقد غلام فصلاً كاملاً في رحلته للحديث عن جغرافية مكة المكرمة ومنى ومزدلفة وعرفات، معرفاً بعدد من المواقع التي تقع في دائرة جغرافية هذه الأماكن أومن حولها وبشكل خاص وصف بدقة متناهية مسجد الخيف عمرانياً واجتماعياً وتاريخ وفوائد نهر زبيدة كما كان يسميه .(٢)

وأسهب في الحديث عن بيت الله الحرام بجميع أركانه ومسمياته مع رسم تقريبي بخط يده لحدود الحرم وآخر لتلك المواقع ولطرقها وثالث للحرم الشريف وأبوابه وساحاته ومصلياته ورابع للطريق من مكة المكرمة إلى عرفات وماعليه من العلامات والمسميات ورسم صورة لكيفية الآذان آنذاك حيث يبدأ الأذان من سطح مبنى بئر زمزم ويردده ثانياً مؤذن الحرم وكانت كل جماعة من الجماعات الأربع المالكية والحنفية والشافعية والحنابلة تقيم الصلاة على حدة والآن تقام جماعة واحدة لكل المسلمين فمن بين أفضال السلطان ابن سعود على الحجاز هذا الفضل العظيم .(٣)

كان غلام رسول مهر دقيقاً في ملحوظاته ولذا فقد دوَّن في رحلته استياءه من مزاحمة بعض نساء الحجاج من جنسيات معينة

---

١ – انظر : غلام رسول مهر، يوميات رحلة في الحجاز – مصدر سابق – ص٥٦–٥٨ .

٢ – انظر : غلام رسول مهر، يوميات رحلة في الحجاز – مصدر سابق – ص٨٥–٨٧ .

٣ – انظر : غلام رسول مهر، يوميات رحلة في الحجاز – مصدر سابق – ص٦٢–٧١ .

للرجال ومدافعتهن لهم في قوة وشدة تجعل الرجل القوي يفقد توازنه مما يفقد الإحساس الجميل الناتج عن التوجه إلى الله عند الطواف ووصف حالته عندما واجه ثلاث مجموعات من هؤلاء النسوة انتهت إحداهن في الدفعة الثالثة وكانت ضخمة قوية كما يصفها الشيخ غلام إلى مسك رقبته ودفعه بقوة فتقذفه بدفعة واحدة إلى مقام إبراهيم يقول غلام لقاريء رحلته : "وأنت تعرف أنني قوي جداً وضخم الجسم لست نحيفاً ضعيفاً منحني القامة لكنني لم أجرب ضعفي وعدم قدرتي أمام النساء من قبل كما جربتها الآن لقد اعتقدت أنني قادر على حماية النساء فمددت يدي حتى يمضين بسلام فتقدمت إحداهن ومرَّغت هذا التنطع في التراب وبعد ذلك لم أجرؤ على التفكير في قدرتي على حماية النساء من تلك الجنسية بل كلما لمحتهن من بعيد خفضت رأسي وأنا أفكر في حماية نفسي" (١)

كما تحدث عن الطائفين على الأسرة المحمولة ومايسببونه من تضييق على الطائفين وانتهى إلى ضرورة تقييد هذه العملية بالضرورة القصوى ومنع الساعين في المسعى على البغال والحمير لما في عملهم من تضييق على الحجاج وقت الزحام وماتسببه دوابهم من أذى، وتعجب من رغبة الجاويين في الحج ومن بقائهم أطول مدة ممكنة واستوقفه منظرأطفالهم الذين يطوفون ويظهر على محياهم بوضوح الشوق والرغبة وأبدى بسبب ذلك رغبته في احتضانهم وتقبيلهم اعجاباً بهم (٢)

---

١ – غلام رسول مهر، يوميات رحلة في الحجاز – مصدر سابق – ص٧٩–٨٠ .

٢ – انظر : غلام رسول مهر، يوميات رحلة في الحجاز – مصدر سابق – ص٨١–٨٢ .

ولم تتوقف الرغبات العلمية عند غلام في تنقله بين المشاعر عن التحرك والتشوق فاصطحب رجلاً محباً للكتب هو الأستاذ عبدالحي عرب واصفاً له بأنه أصبح بسبب ذلك أقرب الناس إليه .[١]

كما كان من رفقاء سفره حافظ محمد صديق من كبار التجار، وذكر أنه " مهتم جداً بالأعمال المتعلقة بتطوير المسلمين وتعليمهم "[٢]

وتلقي رحلة الدكتور محمد حسين هيكل (ت ١٣٧٦هـ)، المسماة (في منزل الوحي)[٣]، التي قام بها سنة خمس وخمسين وثلاثمائة وألف من الهجرة النبوية مزيداً من الضوء على المعطيات الثقافية في مكة المكرمة في ذلك الزمن ؛ حيث صاغها بأسلوب أدبي جميل، وامتلأت بتفصيلات كثيرة.

وظهر الجانب الثقافي واضحاً عندما وصف لقاءه بحاج إرلندي أسلم منذ خمس سنين وأقام في سرواك بماليزيا ولم تَطِبْ نفسُه كما قال بما دون التعمق في درس حالة المسلمين الاجتماعية والأخلاقية وبالبحث بوصف كونه إرلندياً عن الأسباب التي أودت بهم إلى كراهيةِ الخضوع لغيرهم فأخذت بساطةُ العقيدة الإسلامية بمجامع قلبه ووصلت من تفكيره إلى أعماقه وجعلته يؤمن بحقيقة هذا الدين الذي نزل على النبي العربي ﷺ وبحضارة الأخوةِ والإباءِ التي يدعو إليها

١ – انظر : غلام رسول مهر، يوميات رحلة في الحجاز – مصدر سابق – ص٥٨ .

٢ – غلام رسول مهر، يوميات رحلة في الحجاز – مصدر سابق – ص٢٠–٢١ .

٣ – د/محمد حسين هيكل، في منزل الوحي، نشر دار المعارف بمصر، ط١.

ويؤمن بأن الحضارةَ التي تنشر أوروبا اليوم لواءَها في العالم باسم العلم ليست من العلم في شيء فهذه الحضارةُ تتلخص عنده في إخراج الناس من بساطتهم الفطرية التي تكفل لهم سلامةَ التفكير وسموَّ الغايةِ ليخضعوا لأهوائهم وشهواتهم المادية فتضعف نفوسُهم ويذِلُّوا وأن الحجَّ إنما فُرِضَ لِيُشْهِدَ المسلمُ اللّهَ على نفسِه أمام ملأ إخوانِه المسلمين أنه نَبَذَ ماااختلط بحياته قبل الحج من ذنوب وأوزار والله يغفر له ماصدق التوبةَ ليولَد ميلاداً روحياً جديداً يكون بعده خيراً مما كان قبله من علم وبصيرة [(١)].

وقد كان جريئاً في طرح آرائه، يتضح ذلك من إشارته إلى أن خطبة عرفات كانت من الخطب التقليدية التي أَلِفَت الأذانُ سماعَ ألفاظها ومعانيها التي أصبحت لاتتفق وروحَ العصر ولاتتفق كذلك مع طبيعةِ الإسلام الداعيةِ دائماً إلى التجديد في حدود ماأمر الله به ومانهى عنه [(٢)].

ومن ذلك الاقتراح الذي طرحه المؤلفُ على الوزير ابنِ سليمان بأن تكون مكةُ مقراً لعصبة للأمم الإسلامية كما أن جنيف مقرٌ لعصبة الأمم المتحدة [(٣)].

أما رحلة مسعود عالم الندوي، المسماة (شهور في بلاد العرب) [(٤)]، التي قام بها سنة ثمانٍ وستين وثلاثمائة وألف من الهجرة

---

١ – د/محمد حسين هيكل، في منزل الوحي – مصدر سابق – ص ٩٢–٩٣ .

٢ – د/محمد حسين هيكل، في منزل الوحي – مصدر سابق – ص ٩٤.

٣ – د/محمد حسين هيكل، في منزل الوحي – مصدر سابق – ص ٨٣.

٤ – مسعود عالم الندوي، شهور في بلاد العرب، ترجمة د/سمير عبدالحميد إبراهيم، نشر مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالرياض عام ١٤١٩هـ .

النبوية الشريفة، فقد كان الدافع الأول لها هو الاستجابة لنداء الله عز وجل للحج ومع ذلك الهدف الأساس هناك دوافع أخرى متعددة لهذه الرحلة عند مؤلفها صرح ببعضها في مواضع من رحلته وألمح في مواضع أخرى إلى البعض الآخر، فهي رحلة علمية لطلب العلم، وهي في ذات الوقت رحلة دعوية لتبليغ دين الله، وهي تعبير عن مودته للعرب وفاء لحملهم الإسلام إلى أصقاع الدنيا وأجناسها، حيث يقول : فأنا عاشق للعرب أحلم بأن أشاهد العظمة العربية أتغنى بالنخوة العربية والحَمِيَّةِ العربية .

إلا أن هذا التعاطف لم يمنعه أن يتحسر في موضع آخر على تدني ثقافتهم، فيقول : : فالأمة التي اختارها الله لهداية العالم سيطرت عليها الغفلة حتى إنه صار من المخجل أن نتعاطف مع أهلها ونطلب لهم العزاء، وربما يرجع هذا إلى الثروة التي جرتهم إلى طريق حب الدعة والراحة .

فرحلة الشيخ الندوي بالنظر إلى هذه الدوافع المتعددة تضمنت معلومات وافرة عن الحياة الاجتماعية والثقافية والتاريخية والاقتصادية والسياسية في زمنها .(١)

وبهره بشكل خاص منظر الطائفين وهو ماعبّر عنه بأسلوب أدبي بديع قائلاً : واتجهنا مباشرة إلى الحجر الأسود كان هناك هجوم للفراشات على الشمع وكان الحرم بأكمله بقعة من نور تحوم حولها فراشات التوحيد ووسط المنزل المعمور بالنور نقطة سوداء تبدو

---

١ – انظر : مسعود عالم الندوي، شهور في بلاد العرب – مصدر سابق – ص ٣٩ –٤٠ .

أكثر البقاع ضياء وعلى حافة هذه النقطة كانت الفراشات تدور وتدور .

وأشار في معرض وصفه إلى أن المطاف كان سوقاً عامرة مزدحمة بالناس وكانت السيارات أيضاً تسير في المطاف ثم تحدث عن مشقة البحث عن سكن في مكة المكرمة إضافة إلى كون أرضيتها ترابية والطرقات ترابية .(١)

كما تحدث عن المدرسة الصولتية، والمدرسة الفخرية (٢)، ودار الحديث بمكة، ومكتبة الحرم والمكاتب التجارية عند باب السلام، ولفت انتباهه أن المدرسة الفخرية تعطي المتفوقين جوائز من النقود وتألم من ذلك لأنه يربي العقلية التجارية على حساب الثقافة، وتمنى لو كانت الجوائز كتباً، كما تحدث عن لقائه بخالد الفرج .(٣)

وجاء حديثه عن أيام رحلته بحسب تسلسلها الزمني وماعمله في كل وقت والمعاناة التي عاناها والأشخاص الذين قابلهم، وكان مما تحدث عنه الشيخ مسعود الندوي لقاء الملك عبدالعزيز بكبار الشخصيات من الحجاج الذي كان هو من المدعوين إليه، والحفل الخطابي المرافق لهذا اللقاء، كما وصف مؤتمر الحج بوصف أدبي رائع مبرزاً دلالاته ومعانيه الإيمانية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية

١ – انظر : مسعود عالم الندوي، شهور في بلاد العرب – مصدر سابق – ص٤٠١– ٤٠٢.
٢ – انظر : مسعود عالم الندوي، شهور في بلاد العرب – مصدر سابق – ص٤٠٤– ٤٠٨.
٣ – انظر : مسعود عالم الندوي، شهور في بلاد العرب – مصدر سابق – ص٤٢٧– ٤٢٨.

والسلوكية ومايلمسه المتأمل فيه من ذوبان العصبية والقومية والعرقية.

وفي ملمح ثقافي أشار إلى أنه عندما عاد إلى منى مرة أخرى ليكمل رمي الجمار ساءه ترك سنة الذكر عند رمي الجمار برغم أهميتها وساءه أكثر مايصاحب الرمي من السب والشتم بأقذع ألفاظ السباب بدعوى تأديب الشيطان بل لفت النظر إلى أن الحجاج والأهالي أصبحوا يسمون الجمار بالشيطان حتى إنك لوسألت إنساناً أين موقف السيارات المتوجهة إلى مكة لقال لك على الفور إنه عند الشيطان الأكبر أي الجمرة الكبرى .[1]

وفي ثنايا هذه الرحلة تبرز محبة الشيخ الندوي للعلماء وطلبة العلم وكتب العلم ولذا فقد حرص على لقاء عدد كبير من العلماء والأعلام المعروفين ومن هؤلاء الأمير مساعد بن عبدالرحمن والأمير سعد بن عبدالرحمن والشيخ عمر بن حسن آل الشيخ والشيخ عبدالله ابن حسن آل الشيخ والشيخ عبدالعزيز بن عبدالله آل الشيخ، والشيخ عبدالرحمن بن محمد بن عبداللطيف آل الشيخ، والشيخ عبدالله بن إبراهيم آل الشيخ والشيخ عبداللطيف بن إبراهيم آل الشيخ والشيخ عبدالملك بن إبراهيم آل الشيخ والشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز والشيخ محمد بن مانع وغيرهم، فقد كان مسعود الندوي حريصاً على الالتقاء بأحفاد الشيخ محمد بن عبدالوهاب وتلامذته والاطلاع على كتبهم ؛ لأنه يرى كما صرح في كتابه أن لدعوة الشيخ محمد ابن عبدالوهاب أثراً واضحاً في ظهور أدب متنوع بلغات العالم المختلفة،

١ – انظر : مسعود عالم الندوي، شهور في بلاد العرب – مصدر سابق – ص٤٦٠– ٤٦١.

كما حرص على الالتقاء بالشيخ حمد الجاسر وعبدالقدوس الأنصاري، يضاف إلى ذلك أن الشيخ الندوي التقى في رحلته بعدد من العلماء من مختلف أنحاء العالم مثل الشيخ عبدالوهاب عزام والشيخ محمد حامد الفقي والشيخ محمد الأمين الحسيني مفتي فلسطين وسجل مشاهداته وانطباعاته عن لقاءاته بهم بأمانة ظاهرة .

وظهرت ذائقة الشيخ الندوي الأدبية من خلال اللقاءات الأدبية التي كان حريصاً على حضورها بل والمشاركة فيها .(١)

ولكون مؤلف الرحلة صاحب تجربة صحفية ثرية في بلده الهند فقد ناقش أحوال الصحافة في العالم العربي وبخاصة في المدن التي زارها كما كتب عن المكتبات الحكومية والمكتبات الخاصة والمدارس وكانت له فلسفة خاصة في اختيار هدايا الحج فهو ينفر من شراء الهدايا المجلوبة من خارج الحرمين ولاسيما من البلاد الأجنبية ويفضل عليها ماء زمزم لأنه أصدق تعبيراً عن مدلول هدية الحج ومضامينها النبيلة ومعه التمر وبعض الكتب .

ومما يلفت النظر في رحلة الشيخ مسعود الندوي أنه كان جريئاً في إبداء آرائه بصدق وأمانة ويمكن الاستشهاد على هذه الميزة بعدد من الشواهد ومن أهمها أن الشيخ الندوي قدم في كثير من أجزاء رحلته مقترحات جريئة للقضاء على بعض المظاهر السيئة والبدع والعادات البعيدة عن روح الدين أو الخلق القويم وكانت له مناظرات

١ – انظر : مسعود عالم الندوي، شهور في بلاد العرب – مصدر سابق – ص٣٤٣–٣٤٤وص ٣٤٧–٣٥١وص٤٧٧.

ومشادات كلامية في هذا المضمار ومن ذلك أن السبب الأول في إعجابه بالشيخ عبدالعزيز بن باز أنه مع علمه جريء في قول الحق ومن ذلك كذلك صراحته في وصف أوجه القصور التي تعاني منها مدينة الرياض جواباً لسؤال الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن حسن ابن رئيس القضاة وخطيب عرفة لما التقيا في مكة المكرمة وهو أيضاً في موضع آخر يوصي الحكومة السعودية بوضع حلول إسلامية لمشكلة الفقر عندما رأى مظهراً من مظاهره أثناء رحلته كما برز في الرحلة حرص الشيخ الندوي على تحري السنة في كل أعماله وإن اضطر إلى تجاهل إشباع عواطفه والاستجابة لجواذبه وهذا جانب آخر من جوانب الجرأة والشجاعة ولذلك فهو يقول كان الناس يتشبثون بأستار الكعبة وجدرانها يدعون الله وكان هذا المنظر هو كل مايمكن أن تشاهده في كل ناحية وفي كل اتجاه ومن الواضح أن مثل هذه الحالة من الجذب والشوق تغلب على الإنسان وتؤثر فيه وتجعله في حالة من الوجد لكن مانقل عن رسول الله ﷺ أنه اتجه بوجهه المبارك ناحية الملتزم فقط مابين باب الكعبة والحجر الأسود وأشار بذراعه الكريمة ولهذا أطلق عليه الملتزم وذكر ابن تيمية أنه من المستحسن أن تقف قريباً من الملتزم، ثم يقول : وقد احتاط كاتب هذه السطور حتى الآن فيما يتعلق بالتمسك بستائر الكعبة أو لمس جدرانها فلدي عواطف شوق وعشق وجذب ولدي أيضاً نهج السنة والعشق الذي يجعل الإنسان يتعدى حدود السنة ليس بعشق إنما هو بداية للبدعة بعد الانتهاء من طواف الوداع شعرت برغبة من داخلي للذهاب ثانية إلى الملتزم لأداء هذه السنة أيضاً فهذا أطيب ومن حسن حظي أن المكان كان خالياً

فمكثت فترة أتوجه إلى الله بالدعاء، ثم يقول : عادة مايعود الناس بظهورهم بعد طواف الوداع حتى لاتكون ظهورهم إلى الكعبة المشرفة ولاأدري من روّج لهذه البدعة .[1]

وتجيء رحلة محمد كامل حتة، المسماة (صور من الحجاز)[2] ، التي قام بها سنة ١٣٧٢هـ حافلة بالحديث عن ثقافة مكة المكرمة، حيث تكلم فيها عن بعض الأدباء والشعراء كأحمد الغزاوي، وفؤاد شاكر، ومحمد سرور الصبان، وعبدالله أبي الخير، وأحمد عطار، وعبدالقدوس الأنصاري .

وذكر مشاهداته عن الصحف والمجلات الحجازية كالبلاد السعودية، التي يرأس تحريرها عبدالله عريف، وأم القرى التي يرأس تحريرها الطيب الساسي، ومجلة المدينة التي يرأس تحريرها علي وعثمان حافظ، كما تكلم عن محمد نصيف ومكتبته .

كما شمل حديثه ذكر عدد من دور العلم والمدارس، كالصولتية، والفلاح، ومعهد العلوم الشرعية، والمعهد العلمي السعودي، ومدرسة تحضير البعثات، وكلية الشريعة واللغة، والكلية العسكرية، ودار التوحيد .

وتحدث عن ضعف تعليم البنات آنذاك، وعن حياة المرأة في مكة في البادية والحاضرة .

---

١ – انظر : مسعود عالم الندوي، شهور في بلاد العرب – مصدر سابق – ص٥٠٠– ٥٠١.

٢ – محمد كامل حتة، صور من الحجاز، نشر مجلة صرخة العرب بالقاهرة ١٣٧٢هـ .

وتحدث عن مجالس النخب الفكرية، وتحديداً عن أمسيات محمد سرور الصبان، وعن مقابلته لفيلبي بمكة .[١]

وأشار الدكتور عبدالهادي التازي إلى جوانب ثقافية مهمة في رحلته المسماة (التحليق إلى البيت العتيق)[٢] ، التي قام بها عام ثمانية وسبعين وثلاثمائة وألف من الهجرة النبوية الشريفة، فتحدث عن لقائه بعدد من كبار الأدباء السعوديين مثل عبدالعزيز الرفاعي وأحمد السباعي وعبدالقدوس الأنصاري حيث كان الدكتور التازي ورفاقه من الوطنيين المغاربة يحرصون أشد الحرص على متابعة واستنساخ مجلة المنهل.[٣]

كما تحدث في رحلته عن لقائه بخادم الحرمين الشريفين الملك فهد – وزير المعارف آنذاك – لتسليمه رسالة من وزير التهذيب الوطني المغربي، للتعرف على مظاهر النشاط الثقافي في المملكة العربية السعودية .[٤]

ويتعجب مؤلف الرحلة من غرابة أدعية بعض الناس ثم يقول لابد للمتعة أن تصيخ بآذانك لتسمع وسائل الناس في خطابهم مع ربهم .[٥]

---

١ – انظر : محمد كامل حتة، صور من الحجاز – مصدر سابق – ص ٥٨–٧٩ .

٢ – د/عبدالهادي التازي، التحليق إلى البيت العتيق، نشر دارة الملك عبدالعزيز بالرياض عام ١٤٢٣هـ .

٣ – انظر : د/عبدالهادي التازي، التحليق إلى البيت العتيق –مصدر سابق – ص٣٠ .

٤ – انظر : د/عبدالهادي التازي، التحليق إلى البيت العتيق –مصدر سابق – ص٣٤ .

٥ – انظر : د/عبدالهادي التازي، التحليق إلى البيت العتيق –مصدر سابق – ص٨٣ .

ثـم طـرح علـى نفـسه سـؤالاً سـجله وظـل يـردده هـو هـل الحـج مـؤتمر؟ وهـل سـاعدهم الحـج في التعـرف علـى شخـصيات إسـلامية عالمية؟

وأجـاب بقولـه : إننـا إذا توخينـا الـصراحة في القـول لانملـك غـير القـول بـأن النتيجـة كانـت سـلبية لـيس بالنـسبة إلـي في هـذا العـام ولكـن بالنـسبة للكـل وفي سـائر الأعـوام، فـإذا اسـتثنينا بعـض الالتقـاءات بالـصدفة والنـادرة الـتي جمعتنـا بـبعض النـاس نجـد أنفـسنا كأننـا لم نخـرج مـن المغـرب، فأهـل كـل قطـر يلتـئم حُجَّاجُـه ببعـضهم حـديثهم في نفس المـستوى والموضـوع الـذي كـانوا عليـه في بلادهـم، وأنكـى مـن هـذا وأسـوأ أن النـاس الـذين هـم مـن قطـر واحـد هـم أيـضاً فـرق وجماعـات، فأهـل هـذه المدينـة لايتعرفـون علـى أهـل المدينـة الأخـرى، وحجـاج تلـك القريـة لايخـالطون حجـاج القريـة الأخـرى، وبعـد هـذا فـإن الطبقـات الثريـة قلمـا تـستمع إلى الآخـرين أو تجتمـع بهـم، وحتـى الوفـود الرسميـة لايتعـارفون فيمـا بيـنهم لاأحـد يعـرف مكـان الآخـر وكأنـه لايهمـه أن يعـرف، وهكـذا فلكـل وجهتـه، وإنمـا النـاس يـؤدون هـذا الواجـب أي الحـج وهـم في نظـري – أي نظـر كاتـب الرحلـة – بعيـدون كـل البعـد عـن فكرةٍ توحي بالتعارف والتآلف .

فكاتـب الرحلـة يعـبر عـن انطباعـه حيـال عـدم الاسـتفادة المُثلـى مـن مـؤتمر إسـلامي بحجـم مـؤتمر الحـج يمكـن أن يُوظَّـف لجمـع كلمـة المـسلمين وتوطيـد أواصـر الإخـاء والمـودة والثقافـة بيـنهم إذا اسـتثمر بـشكل صـحيح ليحقـق الأهـداف التربويـة والثقافيـة مـن تـشريعه، بـل إنـه

دعا الحكومة السعودية لاستثمار هذه المناسبة عن طريق كتاب أو صحيفة توزع على الحجاج للتعريف بجهودها ويقول : كان يمكن أن يكون الحج مناسبةللدولة المُضيفة لنشر أكبر عدد ممكن مما يمس التعريف الدقيق بهذه الأراضي المقدسة ويمس نشاط الحكومة، مثلاً أريد أن أقول : إن على أجهزة الدعاية أن تعرف عدد الحجاج ليصبح أو يمسي عند كل واحد منهم صحيفة أو كتاب، إن الدول تبعث بمنشوراتها إلى البلدان النائية، أفليس خليقاً أن تستثمر الدولة السعودية هذه المناسبة أحسن استثمار؟ (١)

والحالة الثقافية في مكة المكرمة كانت واضحة أيضاً في رحلة محمد نديم الوفائي، المسماة (حكاية حج)، التي قام بها سنة ١٣٨١هـ، حيث أشار إلى مجلة قريش التي أصدرها أحمد السباعي، ومجلة الرياضة ومجلة الحج، وجريدتي البلاد والندوة، وأشار بصفة خاصة إلى حركة الطباعة في مكة المكرمة، وإلى ورش حفر الصور والزونكغراف . (٢)

وتأتي رحلة عبدالله بن علي بن الشيخ أبي بكر من جيبوتي، المسماة (قرة العين في الرحلة إلى الحرمين الشريفين) (٣)، التي قام بها سنة ١٣٨٢هـ مركزة على كثير من الجوانب الثقافية المهمة، حيث

---

١ – انظر : د/عبدالهادي التازي، التحليق إلى البيت العتيق –مصدر سابق – ص٩٥–٩٦ .

٢ – انظر : محمد نديم الوفائي، حكاية حج، نشر مكتب حمص للصحافة والنشر، ص ٩٥–٩٧ .

٣ – عبدالله بن علي بن الشيخ أبي بكر، قرة العين في الرحلة إلى الحرمين الشريفين، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده بمصر، ط١، ١٣٩٠هـ .

تحدث عن تطور التعليم، ومناهج الدراسة، وصلة البيت بالمدرسة [١]، إضافة إلى حديثه عن آثار مكة المكرمة، ومشاعرها، وتوسعة الحرمين الشريفين . [٢]، كما تحدث عن مجالس الوعظ بالحرم المكي، ولفت الانتباه إلى تعدد جنسيات الواعظين . [٣]

***

١ – انظر : عبدالله بن علي بن الشيخ أبي بكر، قرة العين في الرحلة إلى الحرمين الشريفين – مصدر سابق – ص٣١–٣٣ .

٢ – عبدالله بن علي بن الشيخ أبي بكر، قرة العين في الرحلة إلى الحرمين الشريفين – مصدر سابق – ص١١٦–١٦٢ .

٣ – عبدالله بن علي بن الشيخ أبي بكر، قرة العين في الرحلة إلى الحرمين الشريفين – مصدر سابق – ص٢٧٦.

المبحث الثاني

(نماذج للجوانب الثقافية في كتابات الرحالة الغربيين عن مكة المكرمة)

تميزت كتابات الرحالة الغربيين بأنهم قدموا – غالباً – من أجل الاستكشاف، بغض النظر عن أهدافهم المبيتة، وصحة إسلامهم من عدمها، والاستكشاف عادة يعطي صاحبه قدرة عجيبة في تتبع التفصيلات الدقيقة التي لاتلفت نظر الإنسان العادي، ولاتستوقف تفكيره .

كما أن هذه التفصيلات تقود – غالباً – إلى حقائق أخرى ؛ لأن الاستكشاف – عادة – سلسلة متشابكة الحلقات .

وفي هذا المبحث – كما في المبحث السابق – سأورد نماذج للجوانب الثقافية في تلك الرحلات ؛ لأن الاستقصاء متعذر نظراً لكثرة عدد الرحلات، وتجددها، إذ تضاف بين الفينة والفينة كتابات عن رحلات كانت مطمورة في أرفف المكتبات، ولضخامة المجالات التي تناولتها تلك الكتابات، حيث تتنوع الثقافات بتنوع مجالات الحياة ذاتها لتصبح ثقافات اقتصادية وطبية وزراعية وغيرها ، وبحسب سلوك الإنسان حيث تظهر ثقافة الاحتطاب وثقافة السقيا ، ونحو ذلك، مما يجعل محاولة التقصي شائكة الدروب، وعرة المسالك.

نبدأ هذا المبحث بإطلالة ثقافية سريعة على رحلة مبكرة هي

رحلة لودفكو فارتيما، المسماة (رحلات فارتيما) [١]، الذي قام بها سنة ١٥٠٣م، وسمى نفسه الحاج يونس.

القيمة الحقيقة لهذه الرحلة في أنها تؤكد أهمية الرحلات في رسم السياسات الدولية ؛ لأن الهدف منها كان خدمة التوسع البرتغالي، كما ظهر منها عناية الغربيين بالتعرف على ثقافات الشعوب لضمان نجاح الخطط السياسية الموضوعة، علاوة على أن فارتيما وصف الكعبة وعرفات ومنى ومزدلفة وصفاً له أهميته بالنظر إلى الزمن المبكر للرحلة . [٢]

وثمة رحلة مبكرة مشابهة لها في سوء المقصد، إنها رحلة جوزيف بتس، المسماة (رحلة جوزيف بتس إلى مصر ومكة المكرمة والمدينة) [٣]، التي قام بها سنة ١٦٨٠م، وسمى نفسه الحاج يوسف .

وبرغم ماكتبه هذا الرحالة من عبارات السخرية بمناسك المسلمين كتسميته الكعبة وثن المسلمين، والتندر بوقائعهم التاريخية، كحادثة شق صدر النبي ﷺ [٤]، إلا أن هذه الرحلة بالنظر إلى تاريخها المبكر تعد ذات أهمية في التعرف على بعض الجوانب

١ – لودفكو فارتيما، رحلات فارتيما، ترجمة وتحقيق د/ عبدالرحمن الشيخ، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، ١٩٩٥م.

٢ – انظر : لودفكو فارتيما، رحلات فارتيما، ترجمة وتحقيق د/ عبدالرحمن الشيخ – مصدر سابق – ص١٠ –١٢ .

٣ – جوزيف بتس، رحلة جوزيف بتس إلى مصر ومكة المكرمة والمدينة، ترجمة وتحقيق د/ عبدالرحمن الشيخ، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، ١٩٩٥م .

٤ – انظر : جوزيف بتس، رحلة جوزيف بتس إلى مصر ومكة المكرمة والمدينة – مصدر سابق – ٤٦.

الثقافية السائدة آنذاك .

كما أنه تحدث عن العشب والفواكه في مكة المكرمة، وعن بعض عادات وثقافة السكان، ووصف المسجد الحرام ومشتملاته وصفاً دقيقاً .[١]

وثمة جوانب ثقافية أخرى نجدها واضحة في رحلة دمينجو باديا ليبليش، الرحالة الأسباني إلى مكة المكرمة[٢] ، التي قام بها عام ١٨٠٧م، وسمى نفسه : علي بك العباس .

فقد تميزت هذه الرحلة بأنها أوضحت بجلاء أثر ثقافة الرحلات في توجيه السياسات العامة، وفي محاولة تفسير بعض الظواهر الاجتماعية، والثقافية المهمة، فقد كان هذا الرحالة " يحمل أجهزة علمية دقيقة جداً، منها مقياس للرطوبة الجوية، وآلات أخرى فلكية، تمكنه من الحصول على معلومات علمية دقيقة عن مستوى البحر عند جدة وينبع، وتمكنه من تحديد مواقع المدن بالنسبة لخط الاستواء، كما تمكنه من الوصف البيولوجي للجبال، ووصف النباتات، والحيوانات، والحشرات "[٣]

كما قدم تقريراً علمياً مفصلاً عن الحج، ووصف المسجد الحرام وصفاً دقيقاً مطابقاً للواقع، كما ألقى ضوءاً على ثقافة أتباع

١ – انظر : جوزيف بتس، رحلة جوزيف بتس إلى مصر ومكة المكرمة والمدينة – مصدر سابق – ٤٩–٥٠.

٢ – محمد حسين زيدان ، رحلات الأوروبيين إلى نجد وشبه الجزيرة العربية، نشر دارة الملك عبدالعزيز بالرياض، ط١، ١٣٩٧هـ .

٣ – محمد حسين زيدان ، رحلات الأوروبيين إلى نجد وشبه الجزيرة العربية – مصدر سابق – ص ٩–١٠.

الدعوة السلفية – دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ويظهر أن هذا هو أهم عامل في تنفيذ رحلته – .

ووصف دخول جيش الدرعية للحج وعلى رأسهم الإمام سعود وأبو نقطة، ووصف العلم المنقوش عليه لاإله إلا الله محمد رسول الله .[(١)]

لننتقل بعد ذلك إلى رحلة السويسري بوركهارت (ت ١٨١٧م)، المسماة (رحلات في شبه جزيرة العرب)[(٢)]، التي قام بها سنة ١٨١٤م، وسمى نفسه الحاج إبراهيم عبدالله .

حيث تحدث عن بعض منازل أعيان مكة من المثقفين والعلماء والتجار، وتكلم عن البناء والعمران فيها، وعن الماء وثقافة السكان في تخزينه، وحمامات مكة العامة، ومعامل الأواني الفخارية على جبل أبي قبيس، والمصانع والطواحين الضخمة التابعة للحكومة التركية، والمصابغ الوحيدة في الحجاز كله لصبغ الكتان والقطن .[(٣)]

وتحدث بإسهاب عن حلقات التدريس في الحرم .[(٤)]

وعن هيئة العلماء الذين يحملون العصا، وعن ثقافة نساء مكة

---

١ – انظر : محمد حسين زيدان ، رحلات الأوروبيين إلى نجد وشبه الجزيرة العربية – مصدر سابق – ص ١٠–١١.

٢ – جون لويس بوركهارت، رحلات في شبه جزيرة العرب، ترجمة د/ عبدالعزيز الهلابي، ود/عبدالرحمن الشيخ، نشر مؤسسة الرسالة بيروت، ط١، ١٤١٣هـ .

٣ – انظر : جون لويس بوركهارت، رحلات في شبه جزيرة العرب – مصدر سابق – ص ١٠١–١٢١.

٤ – انظر : جون لويس بوركهارت، رحلات في شبه جزيرة العرب – مصدر سابق – ص ١٤٢.

وملابسهن وزينتهن، وتربية أهل مكة لأولادهم، وملاحظة المؤلف أنهم لايفسدونهم بالدلال كسائر أهالي مدن الشرق .

كما تحدث عن العلماء العاملين في المسجد الحرام .(١)

وتحدث عن ثقافة الديكور في مكة، وزينة المنازل ببسطها وفرشها ووسائدها وأرائكها، وتزاور الجيران، وحبهم للمزاح، وعن الثقافة الشعبية من خلال حديثه عن بعض الألعاب المشتهرة في المجتمع المكي .(٢)

وأشار بوركهارت إلى العلم والتعليم ومعوقاتهما في مكة، والمدارس والأربطة التي تحولت إلى مساكن للحجاج .(٣)

وتحدث عن حفلات الختان، وعضل البنات – منعهن من الزواج – وضعف القضاة .(٤)

ونجد بعض المعطيات الثقافية عن مكة المكرمة في رحلة ليون روش الفرنسي، المسماة (رحلة ليون روش إلى الحجاز)(٥) ، التي قام بها عام ١٨٤١–١٨٤٢م، وسمى نفسه الحاج عمر بن عبدالله .

وعلاوة على وصف الكعبة، والحرم، والمشاعر، فقد تحدث

١ – انظر : جون لويس بوركهارت، رحلات في شبه جزيرة العرب – مصدر سابق – ص ١٧٣–١٧٤.

٢ – انظر : جون لويس بوركهارت، رحلات في شبه جزيرة العرب – مصدر سابق – ص ١٨٣–١٨٩.

٣ – انظر : جون لويس بوركهارت، رحلات في شبه جزيرة العرب – مصدر سابق – ص ١٩٤.

٤ – انظر : جون لويس بوركهارت، رحلات في شبه جزيرة العرب – مصدر سابق – ص ٢٠٠–٢١٤.

٥ – ليون روش، رحلة ليون روش إلى الحجاز، د/بلقاسم سعد الله، الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية، نشر دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٤هـ .

روش عن الدروس في الحرم المكي، وعن المؤدبين الذين يعلمون الصبيان القرآن الكريم، وعن المدرسة التي سماها جامعة السليمانية بمكة المكرمة، وذكر أن علماءها من كبار السن، وأن لهم حرمة كبيرة، وامتياز إلقاء دروس الوعظ على كرسي الحرم .[١]

ومن خلال رحلة روش يمكن للقارىء أن يلم بالحالة الثقافية السائدة في مكة المكرمة – كغيرها من الدول الإسلامية في ذلك العصر – ولاسيما غلبة البدع على الحياة العامة، وتآمر أصحاب البدع مع المستعمرين، فقد صرح روش أن أتباع الطائفة التيجانية، وطوائف صوفية أخرى ساعدوه على تمرير مشروعه للقضاء على الجهاد الإسلامي في الجزائر ضد المستعمرين .[٢]

والرحلة التالية هي رحلة ريتشارد بيرتون، المسماة (رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز)[٣]، التي قام بها عام ١٨٥٣م، وقد أشار خلالها إلى حج السلفيين (الوهابيين) من نجد، المصاحبين لقافلة بغداد، ووصف جمالهم، وطريقة ركوبهم عليها، ونساءهم اللائي قال عنهن إنهن لاينتمين للجنس الناعم، إلا أن هذه الطائفة أعجبته عندما داهمهم خطر اللصوص فلم ينقذهم سوى هؤلاء الوهابيين، الذين

---

١ – انظر : ليون روش، رحلة ليون روش إلى الحجاز، د/بلقاسم سعد الله، الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية – مصدر سابق – ص ٢٧٧.

٢ – انظر : ليون روش، رحلة ليون روش إلى الحجاز، د/بلقاسم سعد الله، الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية – مصدر سابق – ص ٢٥٢–٢٥٣.

٣ – ريتشارد بيرتون، رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز – الجزء الثالث –، ترجمة وتحقيق د/ عبدالرحمن الشيخ، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، ١٩٩٥م .

ذكر أنهم حازوا إعجابه في ثقافتهم القتالية .[(١)]

كما تحدث عن ثقافة السكان في علاقاتهم الاجتماعية بحسب الأحياء ومايعتريها من مشكلات، بسبب تلك الثقافة .[(٢)]

ثم تحدث عن مشاعره الروحية عندما دخل الحرم ووقف أمام الكعبة لأول مرة في حياته، مطنباً في بيان الأثر الثقافي لهذه المناجاة الروحية .[(٣)]

كما وصف المشاعر والكعبة وصفاً دقيقاً، مبيناً تاريخها، وجغرافيتها، ومافيها من الاثار .[(٤)]

ووصف قرود الحجاز وصفاً دقيقاً وشاملاً، ولفت الانتباه إلى ميلها للنساء، وتحدث عن رقصة الحرب عند الأعراب .[(٥)]

وذكر بيرتون كثيراً عن طبائع سكان مكة وثقافتهم الاجتماعية والاقتصادية، والجوانب الإيجابية والجوانب السلبية في شخصياتهم .[(٦)]

---

١ – انظر : ريتشارد بيرتون، رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز – الجزء الثالث –، مصدر سابق، ص ٢٤–٢٦.

٢ – انظر : ريتشارد بيرتون، رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز – الجزء الثالث –، مصدر سابق، ص ٣١.

٣ – انظر : ريتشارد بيرتون، رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز – الجزء الثالث –، مصدر سابق، ص ٣٦.

٤ – انظر : ريتشارد بيرتون، رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز – الجزء الثالث –، مصدر سابق، ص ٥١–٨٠.

٥ – انظر : ريتشارد بيرتون، رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز – الجزء الثالث –، مصدر سابق، ص ٨٣–٨٤.

٦ – انظر : ريتشارد بيرتون، رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز – الجزء الثالث –، مصدر سابق، ص ٩٣–٩٥.

رحلة بيرتون مليئة بالحديث عن المزارات، والبدع، والخرافات التي لايصدقها عقل، التي ينقلها عن غيره نقل المسلم بها، كما أنه عقد فصلاً كاملاً عن المواضع التي يقصدها الزائرون للتبرك في مكة المكرمة، مما يعطي لمحة عن الثقافة المتدنية السائدة في ذلك العصر .[١]

كما تحدث بيرتون عن الثقافة اللغوية عند بعض أهل مكة، مشيراً إلى أعرابي عجوز يتحدث الفارسية، والهندوستانية بلغة سليمة، والباشتو، والأرمنية، والإنجليزية، والفرنسية، والإيطالية، إضافة إلى لغته الأصل العربية، وعرف منه أنه يعمل مرشداً للحجاج، مما يدل على أثر ثقافة مكة المكرمة في سكانها .[٢]

وقد حفلت رحلة المستشرق الهولندي سنوك هورخرونيه، المسماة (صفحات من تاريخ مكة المكرمة)[٣]، التي قام بها سنة ١٨٨٤–١٨٨٥م، وسمى نفسه عبدالغفار، بكثير من المعطيات الثقافية؛ لأنها من أغنى الرحلات، بل هي أغناها على الإطلاق من الناحية الثقافية ؛ لتركيزها على هذا الجانب، ولطول مدة مكث كاتب

---

١ – انظر : ريتشارد بيرتون، رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز – الجزء الثالث –، مصدر سابق، ص ١٠١ – ١٠٨.

٢ – انظر : ريتشارد بيرتون، رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز – الجزء الثالث –، مصدر سابق، ص ١١١.

٣ – كرستيان سنوك هورخرونيه ، صفحات من تاريخ مكة المكرمة، ترجمة وتعليق د/ علي عودة الشيوخ ود/محمد السرياني ود/معراج مرزا، نشر دارة الملك عبدالعزيز بالرياض، ط١، ١٤١٩هـ، وانظر : د/عبداللطيف بن دهيش، دراسة موجزة لبعض مؤلفات كريستيان سنوك هروغرونيه، مجلة العرب س ١١، ع ١١و١٢، جماديان ١٣٩٧هـ ٩٤٢–٩٤٨.

الرحلة في مكة المكرمة التي تجاوزت ستة أشهر متواصلة .

ولـذا يمكـن القـول إن مـن الـصعوبة بمكـان فـرز المحطـات الثقافيـة في هـذه الرحلـة الـتي تجـاوزت سـبعمائة صـفحة مطبوعـة، غـير أنـه يمكن إعطاء إلماحات إلى هذه المحطات .

اسـتعرض هورخرونيـه في الجـزء الأول مـن كتابـه موقـع مكـة المكرمـة، والحـرم ومـشتملاته، والكعبـة، وتـاريخ مكـة المكرمـة عـبر القرون [(١)]

أمـا الجـزء الثـاني مـن الكتـاب فقـد كـان ألـصق بالجوانـب الثقافيـة، حيـث تحـدث عـن الحيـاة اليوميـة في مكـة المكرمـة، مـشيراً إلى أجنـاس الـسكان وخصائـصهم وثقافـاتهم [(٢)] ، والبيـت المكـي وأثـر ثقافة سكانه في تشكيله [(٣)] .

وتكلـم عـن المـرأة المكيـة، ولباسـها، وعـن عـادات الـزواج والطـلاق، وتعـدد الزوجـات، وعـن الطـب والخرافـات في مكـة المكرمـة، والقراءة في الكتاتيب [(٤)] .

---

١ – انظر : كرستيان سنوك هورخرونيه ، صفحات من تاريخ مكة المكرمة، ترجمة وتعليق د/ علي عودة الشيوخ، ود/محمد السرياني، ود/معراج مرزا – مصدر سابق – ١/٦٥– ٣٠٧.

٢ – انظر : كرستيان سنوك هورخرونيه ، صفحات من تاريخ مكة المكرمة، ترجمة وتعليق د/ علي عودة الشيوخ، ود/محمد السرياني، ود/معراج مرزا – مصدر سابق – ٢/٣١١–٣١٤.

٣ – انظر : كرستيان سنوك هورخرونيه ، صفحات من تاريخ مكة المكرمة، ترجمة وتعليق د/ علي عودة الشيوخ، ود/محمد السرياني، ود/معراج مرزا – مصدر سابق – ٢/٣٤٥–٣٥٤.

٤ – انظر : كرستيان سنوك هورخرونيه ، صفحات من تاريخ مكة المكرمة، ترجمة وتعليق د/ علي عودة الشيوخ، ود/محمد السرياني، ود/معراج مرزا – مصدر سابق – ٢/٤٠٢–٤٦٣.

كما خصص فصلاً كاملاً للحديث عن التعليم في مكة المكرمة، تناول فيه علوم الحديث، والمدارس الفكرية السائدة، والمؤلفات المطبوعة والمتداولة، والمصدر المعيشي لطالب العلم، والمدارس في مكة، وأقدم جامعاتها وهو الحرم الشريف، وتكلم عن المدرسين فيه، وجنسياتهم، وطريقة التدريس، ومكانه وحلقاته، ووقت إلقاء الدروس والمحاضرات، ومذاهب المدرسين .

وتحدث عن شيخ العلماء في الحرم، وكيفية إصدار إجازة التدريس، وطريقة الامتحان لها، كما تناول حديثه دراسة كبار السن، وإلقاء المحاضرات في الحرم، وتعليم العربية للأعاجم، والكتب المعتمدة في تدريس العلوم المختلفة، والمجاورة في مكة وأثرها الثقافي، وماكان يرمز إليه بالمنافسات والمشاحنات بين الاتجاهات الفكرية المختلفة في مكة، وهو مايعرف بثقافة الردود بين ذوي الآراء المختلفة، إلى غير ذلك مما يتعلق بالجوانب الثقافية .[(١)]

بل إن التركيز الثقافي في كتابات هورخرونيه ظهر حتى عند تناوله الحديث عن عناصر السكان في مكة المكرمة، فأبرز المعطيات الثقافية المؤثرة في التركيبة السكانية، والخصائص الثقافية لكل عنصر سكاني منها، كما ألمح إلى الأثر المتعدي للحج وثقافة مكة في البلدان الإسلامية [(٢)] .

---

١ – انظر : كرستيان سنوك هورخرونيه ، صفحات من تاريخ مكة المكرمة، ترجمة وتعليق د/ علي عودة الشيوخ، ود/محمد السرياني، ود/معراج مرزا – مصدر سابق – ٢/٤٦٧–٥٤٠

٢ – انظر : كرستيان سنوك هورخرونيه ، صفحات من تاريخ مكة المكرمة، ترجمة وتعليق د/ علي عودة الشيوخ، ود/محمد السرياني، ود/معراج مرزا – مصدر سابق – ٢/٥٤١–٦٣٠.

ولم يقتصر ماكتبه هورخرونيه عن ثقافة مكة المكرمة على التسجيل فحسب، بل إنه كان يدون ملحوظاته، واستنتاجاته وتعليلاته الشخصية، المتعلقة بهذا الشأن، وهو مانستشفه من قوله : " والحياة العلمية في مكة لها جاذبية خاصة للذين يتذوقون طعم هذه الحياة، فالدراسة فيها تسمح بتبادل الأفكار والآراء " (١)

وكوصفه بعض المؤلفات بقوله : " ومن الجدير بالذكر أن بعض هذه المؤلفات لايختلف عن غيره إلا في بعض التفصيلات، وفي بعض الإضافات اليسيرة، الأمر الذي لايثير كبير اهتمام بها " (٢)

وتجيء رحلة مهمة للرحالة الفرنسي جيل كورتلمون (ت١٩٣١م) (٣)، الذي قام بها ليؤدي العمرة عام أحد عشر وثلاثمائة وألف من الهجرة النبوية، (١٨٩٤م)، بعد أن أسلم وسمى نفسه عبدالله بن البشير، وصاحب الرحلة فنان تشكيلي أفرغ كثيراً من مشاعره وعواطفه وانفعالاته وقدراته التشكيلية في ألوان ريشته لتشكيل صورة حية للواقع، لذا فإن هذه الرحلة تميزت بامتزاج الريشة بالعدسة أو التسابق بينهما في رسم الظلال والألوان والحركات والسكنات إلى درجة يصعب التفريق بينهما أحياناً .

---

١ – كرستيان سنوك هورخرونيه ، صفحات من تاريخ مكة المكرمة، ترجمة وتعليق د/ علي عودة الشيوخ، ود/محمد السرياني، ود/معراج مرزا – مصدر سابق – ٥١٠/٢.

٢ – كرستيان سنوك هورخرونيه ، صفحات من تاريخ مكة المكرمة، ترجمة وتعليق د/ علي عودة الشيوخ، ود/محمد السرياني، ود/معراج مرزا – مصدر سابق – ٥١٠/٢.

٣ – جيل جرفيه كورتلمون، رحلتي إلى مكة، ترجمة د/ محمد الحناش، نشر مؤسسة التراث بالرياض، ط١، ١٤٢٣هـ .

كما أن هذه الرحلة تمت بعد قليل من إعلان كورتلمون إسلامه وتغيير اسمه إلى عبدالله بن البشير وفي حقبة تاريخية مهمة مما يعطي لها أهمية لاتخفى نظراً لأهمية المعلومات التاريخية التي يقدمها المؤلف توثيقاً وتحليلاً لتلك الحقبة الزمنية .

ويرجع جزء من أهمية رحلة كورتلمون إلى كونه من الأوروبيين القلائل الذين دخلوا في وقت مبكر حرمي مكة المكرمة والمدينة ، فضلاً عن استخدامه الكاميرا لالتقاط الصور الفوتغرافية في ذلك الوقت الذي يواجه فيه حامل كاميرا التصوير بالعقوبة حتى خارج الحرمين الشريفين، كما أنه سعى إلى الارتقاء بالصور المكتوبة إلى مستوى الصور التي تلتقطها الكاميرا مركزاً في الجزئيات والتفاصيل الصغيرة مازجاً الواقع بالخيال.(١)

وتحدث عن أهمية مكة بصفتها مركزاً للثقافة الإسلامية حيث يتم توزيع الإنتاج الثقافي من خلاله ، مشيراً إلى المطبعة الوطنية بجوار الصفا ، ولافتاً النظر إلى أن مكة المكرمة التي يقصدها جميع المسلمين من كل حدب وصوب أصبحت مركز إشعاع ثقافي وعلمي ، وأكّد ذلك بحرص الهنود سنوياً على إرسال عدد كبير من المؤلفات في التفسير والتاريخ القديم والطب وغيرها من العلوم ؛ لتنتقل من مكة المكرمة إلى جميع أقطار العالم الإسلامي .(٢)

كما شمل حديثه الإشارة لثقافة الري عند حديثه عن مصادر

١ – انظر : جيل جرفيه كورتلمون، رحلتي إلى مكة، ترجمة د/ محمد الحناش – مصدر سابق – ص٣٦.

٢ – انظر : جيل جرفيه كورتلمون، رحلتي إلى مكة، ترجمة د/ محمد الحناش – مصدر سابق – ص٨٧.

مياه مكة المكرمة وطرق السقيا فيها ، حيث أشار إلى أن المياه العذبة تُجلَب من جبال الطائف عبر قناة مبنية وقوية جداً وتسقى مكة من القناة نفسها عبر فتحات من مسافة إلى أخرى حيث يرمي الرجال الدِّلاءَ المصنوعة من جلد الماعز ويملأون بها القِرَب الكبيرة التي يحملونها إلى البيوت على ظهورهم أو على ظهور الحمير ليفرغوها في أوانٍ فخارية كبيرة .(١)

وتحدث عن سوق البادية الذي يعقد كل صباح مشيراً إلى طبيعة رواد هذا السوق ونوع ألبستهم ونحو ذلك من المظاهر العامة للأهالي هناك والبضاعة التي تعرض فيه ولاسيما الأعمال والمشغولات اليدوية التي تصنعها النساء مثل خُرُوج الفرو المصنوعة من خيوط جلدية متعددة الألوان منسوجة أو معقودة بعناية فائقة وخراطيش من الجلد المصبوغ باللون الأسود مزينة بمسامير صغيرة من الفضة وخيوط من الجلد المفتول وأباريق القهوة ذات المصب الطويل – يقصد دلال القهوة العربية –(٢)

كما أشار إلى ثقافة الاحتطاب عند أهالي مكة متحدثاً عن اهتمام الأهالي الزائد بالاحتطاب وذلك بقطع شجر العرعر حيث تربط الجذوع في حُزَم صغيره ثم تجمع الفروع في حزم أخرى وكذلك يفعلون بشجر الأثل مرجعاً ذلك إلى ندرة المحروقات وغلاء ثمنها ، كما أشار إلى طريقة الأهالي آنذاك في جمع علف المواشي عن طريق

---

١ – انظر : جيل جرفيه كورتلمون، رحلتي إلى مكة، ترجمة د/ محمد الحناش – مصدر سابق – ص٩٦.

٢ – انظر : جيل جرفيه كورتلمون، رحلتي إلى مكة، ترجمة د/ محمد الحناش – مصدر سابق – ص٩٧.

البحث عن العشب ثم جمعه قشة قشة وتجفيفه في الظل وفتله على شكل حبال كأنها خصلات من الشعر النباتي ويحفظ مشدوداً ومجففاً .(١)

ولم يتجاهل دكان الهندي المقابل لنافذة مسكنه حيث أبدع في وصف جلسته وعمله في نحت بعض المجسمات الجمالية المستوحاة من بيئة مكة المكرمة ومشاعر الحج وتلوينها لبيعها بعد ذلك مع أدوات القرطاسية .(٢)

وحاول تقديم حلول واقعية للتغلب على كثير من مشكلات الطرق والصحة كدعوته إلى تنفيذ مقترح السكة الحديد بين مكة المكرمة وجدة وهو مقترح لم يُلْغِ فائدتَه اختراعُ السيارات، ومثل الحلول الصحية لتنظيم مجزرة الهدي في منى، وهو مقترح تمَّ تنفيذه بعد ذلك في العهد السعودي متمثلاً في مجزرة منى النموذجية بالمعيصم .(٣)

ونجد معطيات ثقافية أخرى في الرحلة السرية للضابط الروسي يفيم ريزفان (عبدالعزيز دولتشين) إلى مكة، المسماة (الحج قبل مائة سنة)(٤) ، التي قام بها عام ١٨٩٨–١٨٩٩م .

---

١ – انظر : جيل جرفيه كورتلمون، رحلتي إلى مكة، ترجمة د/ محمد الحناش – مصدر سابق – ص٩٨–٩٩.

٢ – انظر : جيل جرفيه كورتلمون، رحلتي إلى مكة، ترجمة د/ محمد الحناش – مصدر سابق – ص٨٨.

٣ – انظر : جيل جرفيه كورتلمون، رحلتي إلى مكة، ترجمة د/ محمد الحناش – مصدر سابق – ص١٥٤.

٤ – يفيم ريزفان (عبدالعزيز دولتشين)، الحج قبل مائة سنة، نشر دا التقريب بين المذاهب بلبنان ط٢ عام ١٤١٤هـ .

فقد تحدث عن عملية بيع الرقيق المجلوب من الحبشة، وعن فئات السكان[(١)].

وتكلم عن الحيوانات والنباتات والزواحف في الحجاز عموماً، وفي مكة خصوصاً، وأسباب ندرة النباتات وخزن الهشيم، والثقافة العامة بين السكان في كيفية التعامل معه[(٢)].

وتناول الصفات الشخصية لأعراب مكة، ونسائها، وثقافتهم الدينية المغرقة في الأساطير، وثقافتهم الاجتماعية المتمثلة في عاداتهم، وثقافتهم الصحية عن التداوي والعلاج[(٣)].

كما تحدث عن الثقافة المعمارية من خلال الهندسة المعمارية لبيوت مكة وجدرانها ومشربياتها وغير ذلك، وألبسة السكان، وطبقاتهم، وتكلم عن الحياة الفكرية لأهل مكة، والجرائد التي تفد إليهم، والمطبوعات الهندية التي يقدم بها الحجاج، وثقافة الاتصالات متمثلة في البريد والتلغراف، كما أشار إلى وظيفة القضاة والمفتين والمحتسبين[(٤)].

وركز بشكل خاص على المدارس الدينية في مكة والمدينة، وطرق التدريس فيها، وأنواع العلوم المتداولة[(٥)].

---

١ – انظر : يفيم ريزفان (عبدالعزيز دولتشين)، الحج قبل مائة سنة – مصدر سابق – ص ٧٧.

٢ – انظر : يفيم ريزفان (عبدالعزيز دولتشين)، الحج قبل مائة سنة – مصدر سابق ص ١٠٦–١٠٧.

٣ – انظر : يفيم ريزفان (عبدالعزيز دولتشين)، الحج قبل مائة سنة – مصدر سابق ص ١١٢.

٤ – انظر : يفيم ريزفان (عبدالعزيز دولتشين)، الحج قبل مائة سنة – مصدر سابق ص ١٤١–١٦٠.

٥ – انظر : يفيم ريزفان (عبدالعزيز دولتشين)، الحج قبل مائة سنة – مصدر سابق ص ١٧٠–١٧٣.

ولاتغيب عن الذهن رحلة عبدالرشيد إبراهيم، المولود في سيبيريا، الذي أصبح من الدعاة والرحالة في اليابان، المسماة (عالم الإسلام) [1]، التي قام بها عام ١٣٢٧هـ (١٩٠٠م –١٩٠١م)

فقد تحدث عن علماء مكة، وتنوع الثقافة اللغوية عندهم، ومسميات كتبهم [2].

كما تحدث عن كثرة مدارس مكة في زمن الرحلة – وقت نفوذ جمعية الاتحاد والترقي –، إلا أنه أردف قائلاً : لكن لم يكن هناك في مكة مفتٍ ولامدرس ولاعالم يشار إليه بالبنان، بل أكثر من ذلك وصفها بأنها محرومة من العلم ومن الفضائل الإنسانية [3].

وتحدث أيضاً عن مؤتمر إسلامي مصغر للمطالبة بوحدة إسلامية منطلقها مكة المكرمة، وأشار إلى أهم المتحدثين فيه [4].

وهناك الرحلة اليابانية لتاكيشي سوزوكي – محمد صالح ، المسماة (ياباني في مكة) [5]، التي قام بها عام ١٣٥٦هـ (١٩٣٨م)،

---

١ – محمد حرب، مكة عام ١٣٢٧هـ من خلال كتاب عالم الإسلام لعبدالرشيد إبراهيم، عالم الكتب، المجلد العاشر، ع٢، شوال ١٤٠٩هـ .

٢ – انظر : محمد حرب، مكة عام ١٣٢٧هـ من خلال كتاب عالم الإسلام لعبدالرشيد إبراهيم – مصدر سابق – ص ٢٥٩.

٣ – انظر : محمد حرب، مكة عام ١٣٢٧هـ من خلال كتاب عالم الإسلام لعبدالرشيد إبراهيم – مصدر سابق – ص ٢٦٠.

٤ – انظر : محمد حرب، مكة عام ١٣٢٧هـ من خلال كتاب عالم الإسلام لعبدالرشيد إبراهيم – مصدر سابق – ص ٢٦١.

٥ – تاكيشي سوزوكي، ياباني في مكة، ترجمة د/ سمير عبدالحميد إبراهيم وسارة تاكاهاشي، نشر مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالرياض ١٤١٩هـ .

تحـدث فيهـا عـن الحـرم المكـي والكعبـة والحجـر الأسـود [١] ، وتحـدث عن الثقافة المعمارية من خلال تصميم بيوت مكة [٢] .

كمـا أشـار إلى الثقافـة المكيـة في ترطيـب الجـو عـن طريـق مجـاري الميـاة المتدليـة مـن السطوح لتتحـول إلى رذاذ أو بخـار [٣] ، وتحدث عن تصميم غرف الحريم ولباسهن، وعادات الزواج . [٤]

***

١ – انظر : تاكيشي سوزوكي، ياباني في مكة – مصدر سابق –ص ١٣١–١٣٥ .

٢ – انظر : تاكيشي سوزوكي، ياباني في مكة – مصدر سابق –ص ١٤٥ .

٣ – انظر : تاكيشي سوزوكي، ياباني في مكة – مصدر سابق –ص ١٥٠–١٥١ .

٤ – انظر : تاكيشي سوزوكي، ياباني في مكة – مصدر سابق –ص ١٦٢–١٦٨ .

المبحث الثالث

(أدب الرحلات الحجازية والأثر المتعدي لثقافة مكة المكرمة)

من المؤكد أن أدب الرحلات الحجازية كان له تأثير ثقافي قوي، من حيث الجانب الوصفي للحالة الثقافية السائدة في مكة المكرمة عبر العصور المختلفة، ومن حيث الاستفادة منه ؛ إلا أنه من المهم التنبيه إلى الأثر المتعدي لثقافة مكة المكرمة، بحيث امتدت آثاره إلى مختلف الأقطار الإسلامية، ليسهم في تشكيل ذاكرتها الثقافية .

بادىء ذي بدء لابد من الوعي بأن هذا الأثر الثقافي المتعدي لمكة المكرمة بدأ مبكراً، وأنه مضمون الاستمرار من الله عز وجل إلى قيام الساعة ؛ لأن الإسلام انطلق من مكة المكرمة نحو العالم أجمع ؛ مصداقاً لقول المولى سبحانه وتعالى : (وماأرسلناك إلا رحمة للعالمين) [1]، ونظراً لأن رسالة نبينا محمد ﷺ رسالة عالمية وخاتمة للرسالات، فإن أثرها مستمر، وبالتالي فإن استمرار أثر مكة الثقافي مستمر باستمرارها، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وإن مما لايصح الاستنكاف عنه أن هذا الأثر المتعدي يتعلق بواجب ديني يقوم به علماء مكة، ومن رضع ثقافة مكة المكرمة، ولابد أن يتلقاه الآخرون ممن اطمأنت نفوسهم في رحاب الإيمان بالقبول ؛ لأنه إرث إسلامي يتجدد مع العصور، فقد كان من أهم

١ – سورة الأنبياء، الآية ١٠٧ .

خصائص الدين الإسلامي أنه دين الدعوة، وأن أمة الإسلام هي أمة الدعوة، كما جاء في محكم التنزيل، في قوله الكريم : (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) (١)

ومكة المكرمة تحديداً لها من هذه الخصيصة أكبر الأثر بحكم أنها قبلة المسلمين، ومهوى أفئدتهم، وموطن كثير من عباداتهم، ومقدساتهم، ومنذ العهد النبوي الشريف، وفور أن فرض الحج إلى بيت الله الحرام، تعلم المسلمون عدداً من الدروس المهمة، أهمها على الإطلاق أن يكون الحج موطناً للقاء بين العالم والمتعلم، بين الفقيه والمتفقه .

وفي جامعة حجة الوداع كان المعلم الأول ﷺ مركز إشعاع علمي للمعرفة والفقه في الدين، ومن على ثرى مكة المكرمة في تلك المناسبة العظيمة– حجة الوداع – كان ﷺ حريصاً أشد الحرص على تبليغ العلم والفقه لكل المسلمين، لذا أمر أن يحمل العلماء من بعده أمانة تبليغهما ، فقد روى زيد بن ثابت رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : (نضّر الله عبداً سمع منا حديثاً فحفظه، حتى يبلغه غيره ؛ فإنه رب حامل فقه ليس بفقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه) (٢)

---

١ – سورة آل عمران، الآية ١٠٤.

٢ – الإمام أحمد، المسند، تحقيق شعيب الأرناؤوط ورفيقيه، الحديث رقم ٢١٥٩٠، نشر مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ، ٣٦٧/٣٥، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع برقم ٦٧٦٥، الألباني، صحيح الجامع الصغير وزياداته، نشر المكتب الإسلامي، ط٣، ١٤٠٨هـ،١١٤٥/٢.

كما أمر المصطفى ﷺ عمه العباس رضي الله عنه أن يبلغ بصوته – وكان جهوري الصوت – من لايصل إليه صوته ﷺ من المسلمين في صعيد عرفات ؛ دلالة على أهمية تبليغ العلم والفقه، وهكذا أصبح مألوفاً أن يتعدى أثر مكة الثقافي إلى أصقاع الأرض قاطبة .

وفي هذا العصر، الذي تطورت فيه وسائل الإعلام والاتصال لايجحد عاقل مالهذه الوسائل من أثر في نشر ثقافة مكة المكرمة، وكم نقلت لنا الأخبار عن إسلام عدد من الناس تأثراً بمشهد متلفز عن مناسك الحج انتقل عبر الوسائط الإعلامية من مكة المكرمة إلى أطراف الأرض البعيدة .

من المؤكد أن مكة المكرمة بالنظر إلى خصائصها الدينية ستظل – دوماً – ساحة تلاقح فكري لابد أن يتعدى أثره حيث " يقدم الوافدون إلى مكة المكرمة، فيهدون إليها شذرات من ثقافاتهم وعلومهم، وتهديهم مكة – بدورها – علماً واسعاً، ومعارف نافعة، ويجدها الناس قد هيأت لهم جماعات من العلماء، وجحافل من المثقفين، يستجيبون لتطلعاتهم " (١)

وهذا الأثر لم يكن غائباً عن أذهان ذوي الاهتمام بتعقب التداعيات الثقافية لمكة المكرمة، ولذا كان في دائرة تفكير ودراسة الرحالة العرب والأجانب أيضاً، الذين نبهوا إليه، وفصلوا القول في نتائجه .

---

١ – محمد الحبيب الهيلة، أثر الحج في الحياة الثقافية والاجتماعية عبر العصور، مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية بحوث ودراسات، الندوة العلمية الكبرى، وزارة الحج ١٤٢٣هـ، ص ٤٦٥.

نجد مثلاً أن " الإسحاقي كان كثير الاهتمام بالشؤون الثقافية، وكانت له عناية بذكر الأشعار، وتدوين بعض الأخبار المتصلة بشؤون الفكر، سواء أكانت مرتبطة بالإطار الفقهي، أو بالإطار التاريخي، أو بالإطار الاجتماعي، ولذا لانظن أن المهتمين بتاريخ المغرب يمكنهم الاستغناء عن المعلومات المقتبسة من هاته الرحلة – رحلة الوزير الإسحاقي الشرقي الحجازية –، فهي ستمكن الكثير من الباحثين من الاطلاع على بعض أحوال المغرب، وعلى بعض اهتماماته التاريخية العامة، وعلى بعض شؤونه الفكرية والأدبية في القرن الثاني عشر الهجري" (١)

إن رحلة الإسحاقي الحجازية، التي تعد معبرة عن ثقافة مكة أصبحت مرجعاً لتاريخ المغرب، بحيث لايستغني الباحثون في تاريخ المغرب في عصرها عن الرجوع إليها .

ومن الرحالة الغربيين تناول هورخرونية الهولندي أثر الحج، وثقافة مكة الدينية في المسلمين في بلاد الجاوى (٢)

كما أكّد كورتلمون الفرنسي الأثر المتعدي لثقافة مكة بإشارته إلى حرص الهنود سنوياً على إرسال عدد كبير من المؤلفات في التفسير والتاريخ القديم والطب وغيرها من العلوم ؛ لتنتقل من مكة

١ – حمد الجاسر، رحلة الوزير الشرقي الإسحاقي إلى الحجاز، – مصدر سابق –، تعليقات الأستاذ محمد بن عبدالعزيز الدباغ محافظ خزانة جامعة القرويين في مدينة فاس، ص٦٦٤.

٢ – انظر : كرستيان سنوك هورخرونيه ، صفحات من تاريخ مكة المكرمة، ترجمة وتعليق د/ علي عودة الشيوخ، ود/محمد السرياني، ود/معراج مرزا – مصدر سابق – ٢/٥٧٤و٥٨١.

المكرمة إلى جميع أقطار العالم الإسلامي .[(١)]

وتوقف يفيم ريزفان الروسي طويلاً عند تأثير الحج في مسلمي روسيا، وربط ذلك بثقافة الحاج واهتماماته وتفكيره، كما نبه إلى تأثير الحجاج الروس في سكان الحجاز .[(٢)]

وهذا الأثر الثقافي المتعدي ملحوظ بشكل جلي في رحلات علماء الشناقطة، حيث تصطبغ به هذه الرحلات " المنثورة منها والمنظومة، المدونة وغير المدونة، ويظهر فيما تتضمنه من إفادات وإنشادات، وماتعرضه من أخبار وأشعار، وماتحتوي عليه من معلومات علمية وأدبية، فهي تضم بين ثناياها الكثير من الأشعار، والفتاوى، والمناظرات، اللغوية، والفقهية، والمساجلات والمطارحات، التي شهدتها رحاب مكة خلال موسم الحج وبعده، بين الشناقطة وغيرهم من علماء العالم الإسلامي، مما جعلها أشبه بالموسوعات العلمية "[(٣)]

لقد ذكر صادق (خضر) العبادي ثلاث عشرة ومائة مادة مخطوطة عن الرحلات الحجازية، والرسائل العلمية الفارسية المخطوطة والمطبوعة حول جغرافية الحرمين الشريفين، وماحقق منها، وماطبع حديثاً[(٤)]

١ – انظر : جيل جرفيه كورتلمون، رحلتي إلى مكة، ترجمة د/ محمد الحناش – مصدر سابق – ص٨٧.

٢ – انظر : يفيم ريزفان (عبدالعزيز دولتشين)، الحج قبل مائة سنة – مصدر سابق – ص ٢٢٥–٢٢٩.

٣ – محمد الظريف، مكة المكرمة في رحلات علماء شنقيط، مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية بحوث ودراسات – مصدر سابق – ص ١٦٣.

٤ – صادق (خضر) العبادي، أدب الرحلات الفارسية إلى مكة المكرمة، مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية بحوث ودراسات – مصدر سابق – ص ١٧٨–١٨٨.

فهذا العدد الضخم من الإنتاج الفارسي عن مكة المكرمة يبين – دون أدنى شك – الأثر المتعدي لثقافة مكة المكرمة في البلاد الفارسية، بل وماحولها كباكستان والهند وتركيا، بالنظر إلى ما هو موجود في مكتبات هذه الدول من الرحلات الحجازية الفارسية وغيرها .

وجانب جدير بالتسجيل هو أثر المجاورين الذين رحلوا للحج، وأقاموا في مكة المكرمة مدة من الزمن تشربوا خلالها بثقافتها، ثم عادوا لبلادهم، " فمنهم من تصدى للتأليف فزود المكتبة العربية بنتاج ثقافته، التي تلقى بعضها أو معظمها أثناء مجاورته للكعبة، ومن هؤلاء خلف بن قاسم بن سهل الذي ألف كتباً حساناً في الزهد، وعبدالله بن محمد بن يوسف الأزدي الذي كانت له تآليف حسنة أخذها عنه كثير من العلماء ... " (١)

" بل إن بعض المجاورين كان له أثر أكبر من ذلك، وهو الإسهام في تحويل بلد بكامله من مذهب إلى مذهب، فقد ذكر أن زياد بن عبدالرحمن بن زياد، المعروف بشبطون فقيه الأندلس على مذهب الإمام مالك كان أول من أدخل مذهبه إلى الأندلس وكان الناس قبله يتفقهون على مذهب الأوزاعي " (٢)

١ – العربي سالم الشريف، مكة والمجاورون الأندلسيون ...، مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية بحوث ودراسات – مصدر سابق – ص ٢٤٦.

٢ – العربي سالم الشريف، مكة والمجاورون الأندلسيون ...، مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية بحوث ودراسات – مصدر سابق – ص ٢٤٧.

ووقف الكتب صورة أخرى من صور الأثر المتعدي لذاكرة مكة الثقافية، حيث " لم يكتفِ بعض هؤلاء المجاورين من أهل الأندلس بجمع الكتب ليستفيد منها هو ومن حوله من طلابه ن ولكنه وسّع دائرة الاستفادة، فوقف كتبه وتآليفه على كل المشتغلين بالطلب والتحصيل، مثلما صنع أبو العباس أحمد الميورقي (ت ٦٧٨هـ) في وج بالطائف.

وكان لاهتمام المجاورين الأندلسيين بالتقييد والتدوين والنسخ والتأليف أثره في ذيوع ماصنفوا من كتب، مثل كتاب التفسير لابن أبي الفضل المرسي، وتجريد الصحاح لرزين السرقسطي، ومعجم التفسير لابن مسدي الغرناطي، وغيره " [١]

وأثر مكة والحج في ثقافة وأدب شبه القارة الهندية ممالايحتاج إلى استشهاد لوضوحه عبر العصور التاريخية المختلفة ؛ فقد " كان بين الهند وأرض الحرمين علاقات خاصة ومتميزة، فقد كانت قلوب أهل الهند حكاماً ومحكومين تتوق إلى أرض الحرمين، كما كانوا يأملون في نيل الثواب من الله بإكرامهم للمدينة المقدسة وأهلها" [٢]

ولضرب مثال من الواقع على الأثر المتعدي لثقافة مكة المكرمة، هذا هو صبي مكة أبو الكلام آزاد، الذي نشأ في مكة

١ – حسن الوراكلي، المجاورون الأندلسيون ...، مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية بحوث ودراسات – مصدر سابق – ص ٣٤٤.

٢ – د/سمير عبدالحميد إبراهيم، أثر مكة والحج في ثقافة وأدب شبه القارة الهندية، مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية بحوث ودراسات – مصدر سابق – ص ٤٠٨–٤٠٩.

المكرمة، ورضع ثقافتها " نال استحسان الجميع، وتعجب مولانا شبلي النعماني، وأديب الأردية حالي، حين التقيا بهذا الفتى، الذي هو مدير تحرير لسان الصدق .

لقد شكلت نشأته في مكة المكرمة شخصيته العظيمة " (١)

وفي جانب ثقافي هام يلفت النظر في الأثر المتعدي لثقافة مكة المكرمة، تلك الحركات الإصلاحية التي شهدتها بقاع عديدة في أصقاع المعمورة، وكان زعماؤها نتاج ثقافة مكة المكرمة، حين تأثروا بها .

مثلاً شهدت شبه القارة الهندية عدداً من حركات الإصلاح الديني كحركة تيتو مير، والحركة الفرائضية، وجماعة المجاهدين " (٢)

ومن الجوانب المهمة لأثر ثقافة مكة المكرمة المتعدي ماانعكس في إنتاج الشعراء والأدباء، حنيناً إلى مكة المكرمة ومافيها من مقدسات، وتعبيراً عن التجليات الروحية عند الرحلة إليها، ومن قرأ الرحلات الحجازية التي ألفها عدد من علماء شنقيط، وتلك التي ألفها بعض علماء الهند وباكستان فسيجد هذا الأثر واضحاً جلياً، بل إن هناك رحلات حجازية نظمت نظماً شعرياً، كالرحلة

---

١ – د/سمير عبدالحميد إبراهيم، أثر مكة والحج في ثقافة وأدب شبه القارة الهندية، مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية بحوث ودراسات – مصدر سابق – ص ٤١٤.

٢ – انظر : د/سمير عبدالحميد إبراهيم، أثر مكة والحج في ثقافة وأدب شبه القارة الهندية، مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية بحوث ودراسات – مصدر سابق – ص ٤١٩.

الموهوبة البخارية في الرحلة الميمونة الحجازية، وأصفى الموارد في تهذيب نظم الرحلة الحجازية للشيخ الوالد، لمحمد المختار السنوسي وغيرها .[١]

وجانب مهم يتعلق بالأثر المتعدي لثقافة مكة المكرمة هو الفوائد التربوية المستقاة من ارتباط المسلم بمشاعر الحج المحسوسة ؛ لأن في الحج شعائر متراصة ومتعاقبة، لكل شعيرة هدف نبيل، ومغزى تربوي هادف، يقول الله سبحانه وتعالى : (ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب)[٢]

فهل لهذه الشعائر معانٍ تربوية ؟

للإجابة على هذا السؤال لابد من العلم بأن من دلائل عظمة الإسلام وشواهد إعجازه ؛ أنه يحتفي بالفطرة البشرية، ويراعي متطلباتها السوية في تشريعاته، ويحرص على التوازن بين الجوانب الروحية والمادية في الحياة، فالإنسان ليس عقلاً مجرداً، ولاكائناً جامداً، ولكنه ذو طبيعة مزدوجة قوامها العقل والقلب .

وفطرة الإنسان التي يلمسها ويشاهدها كل أحد تقول – لو كان لها أن تنطق – : إن هذا الإنسان يبحث عن الأشياء التي يراها بعينه ويحن إليها قلبه ؛ ليبثها أشواقه، ويفضى إليها بحنينه، ويشبع بها رغباته الملحة ؛ فكانت شعائر الحج تلبية لدواعى الفطرة

١ – انظر : د/محمد بن حسن بن عقيل الشريف، المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة النبوية، نشر دار الأندلس الخضراء، ط١، ١٤٢١هـ ١٣/١–١٤.

٢ – سورة الحج، الآية ٣٢ .

المستقيمة واستجابة لتطلعاتها الشغوفة .

(فإذا رأى الحاج هذه الأشياء المحسوسة الظاهرة، المنسوبة إلى الله تعالى (شعائر الله) ذكر الله تعالى، وتأمل كيف تجلت عظمته سبحانه في هذه الشعائر، ثم انتقل بتصوراته في مرحلة لاحقة إلى مايرتبط بها من وقائع وأحوال تذكره بإخلاص التوحيد كما هي دعوة الخليل صلى الله عليه وسلم، وتذكره باليوم الآخر والطريق إليه كما يرمز إلى ذلك اللباس الموحد للحجاج .

ولأبي حامد الغزالي – رحمه الله – استظهار لطيف ودقيق حول هذا المعنى التربوي لشعائر الحج، فيقول رحمه الله : فالشوق إلى لقاء الله عز وجل يسوق الإنسان إلى أسباب اللقاء لامحالة، هذا مع أن المحب مشتاق إلى كل ماله إلى محبوبه إضافة، والبيت مضاف إلى الله عز وجل فبالحري أن يشتاق إليه لمجرد هذه الإضافة، فضلاً عن الطلب لنيل ماوعد عليه من الثواب الجزيل .

ثم يقول : واعلم أنك في الظاهر ترمي الحصى إلى العقبة وفي الحقيقة ترمي به وجه الشيطان، وتقصم به ظهره ؛ إذ لايحصل إرغام أنفه إلا بامتثالك أمر الله سبحانه وتعالى تعظيماً له بمجرد الأمر من غير حظ للنفس والعقل فيه .

ويشير الشيخ أبو الحسن الندوي إلى أن الشوق غريزة في الإنسان الحي السليم، وحاجة من حاجاته، وأنه يبحث له عما يقضي به حاجاته، ويروي غلته، فكان البيت العتيق وماحوله من شعائر الله، والحج ومافيه من مناسك خير مايحقق رغبته، ويسلي حنانه

وعاطفته، وقد قال الله تعالى : (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لاتشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على مارزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق)[١]

ومـاأشار إليه الشيخ الندوي ظاهر للعيان لأن كل حركة لابد لها من غذاء وزاد، وحركة الشوق والحنين تحتاج إلى غذاء للقلب وزاد للعاطفة وسقيا للوجدان، بمايحقق الشبع والإرواء بحسب قوة الحركة وضعفها، ويؤكد الشيخ أحمد الدهلوى هذا المعنى بقوله : وربما يشتاق الإنسان إلى ربه أشد شوق، فيحتاج إلى شيء يقضي به شوقه فلايجده إلا الحج)[٢]

ولأن الحج ماضٍ إلى يوم القيامة فإن الارتباط بين المشاعر المعنوية، الساكنة في وجدان المسلم، وبين المشاعر المادية، المتمثلة في مشاعر الحج بمكة المكرمة سيوقظ الأثر المتعدي لثقافة مكة المكرمة، عبر العصور المختلفة، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وجانب ثقافي مهم نلمح من خلاله تعدي أثر ثقافة مكة المكرمة، هو أهمية التواصي في بناء العلاقات الإنسانية، ومن المتأكد أن مكة المكرمة تشغل حيزاً كبيراً من الخارطة الذهنية

١ – سورة الحج، الآيات ٢٦–٢٩ .

٢ – إبراهيم السماري، الفوائد التربوية في الحج، ط١، الرياض ١٤٢٣هـ ص٤٣–٤٥ .

لكل مسلم، ولذا فإن ثقافتها مؤهلة للانتقال عن طريق التواصي .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : (وهذا الموجود في المنكر نظيره في المعروف، وأبلغ منه، كما قال تعالى : ﴿ والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾ [١] ، فإن داعي الخير أقوى، فإن الإنسان فيه داع يدعوه إلى الإيمان والعلم والصدق والعدل وأداء الأمانة، فإذا وجد من يعمل مثل ذلك صار له داع آخر، لاسيما إذا كان نظيره، ولاسيما مع المنافسة، وهذا محمود حسن، فإن وجد من يحب موافقته على ذلك ومشاركته له من المؤمنين والصالحين، ويبغضه إن لم يفعل ذلك صار له داع ثالث، فإذا أمروه بذلك ووالوه على ذلك وعادوه وعاقبوه على تركه صار له داع رابع، ولهذا يؤمر المسلمون أن يقابلوا السيئات بضدها من الحسنات كما يقابل الطبيب المرض بضده) [٢]

والتواصي ذو أثر بليغ في ثقافة الإنسان لأنه يتغلغل في فكره، وينعكس في سلوكه، حتى دون أن يشعر بتأثيره .

" قد يكون الفعل غير مقصود التأثير في الآخرين من الفاعل، ولكن الآخرين ينتفعون به عرضاً، فيكتسب تأثير التواصي وصفته حينئذ، ولهذا كانت القدوة – حسنة وسيئة – باباً من أبواب التواصي بهذا المعنى " [٣]

١ – سورة البقرة، الآية ١٦٥ .

٢ – ابن تيمية، رسالة الحسبة، تحقيق محمد زهري النجار، نشر المؤسسة السعيدية بالرياض ، ط١، ١٩٨٠م، ص١٥٦–١٥٧.

٣ – إبراهيم السماري، الإبداء في الدعوة الإسلامية، ط١، الرياض ١٤٢٤هـ ص١٢١.

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾ [١] ، وهكذا الشأن في ورثته من العلماء، ولاسيما في البلد الحرام من علماء البيت الحرام، الذين يصبحون ويمسون قدوة للمسلمين، وبذلك يتعدى أثر ثقافة مكة من هذا الجانب .

ولنأخذ مثلاً مضروباً يؤكد هذه الحقيقة، بلسان شاهد من أهلها، لنجد أن " الإنسان العثماني شغوف بسماع كل مايتعلق ببيت الله الحرام، والمشاعر المقدسة، بل إن مخيلته تصور له تلك البقاع المباركة، ويسبح في جو روحاني فذ " [٢]

وهو أثر مستمر لايقطعه سوى الموت " وهكذا كانت مكة المكرمة رمزاً مميزاً في مخيلة الإنسان العثماني، كان حاضراً في ذهنه، وينشده بلسانه، في أشعاره وقصائده، ويزين أطراف بيته بصوره وآثاره، كما كان البيت العتيق ماثلاً أمام عينيه مع تعاقب الليل والنهار، بل لشدة ولعه به سمى ابنه بمايذكره بالحج على الدوام – الحاج –، فأصبح هذا الابن حاجاً، حتى لو لم يرد الحجاز أبداً " [٣]

---

١ – سورة الأحزاب، الآية ٢١ .

٢ – د/سهيل صابان، رمزية الحج ومكانة مكة المكرمة في مخيلة الحجاج العثمانيين، مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية بحوث ودراسات – مصدر سابق – ص ٥٥٠.

٣ – د/سهيل صابان، رمزية الحج ومكانة مكة المكرمة في مخيلة الحجاج العثمانيين، مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية بحوث ودراسات – مصدر سابق – ص ٥٥٤.

الخاتمــة:

الحمــد لله رب العــالمين ؛ بنعمتــه تــتم الــصالحات، والــصلاة والسلام على أشرف الخلق، برسالته تمت الرسالات، وبعد :

فقــد عــشت في رحــاب ثقافــة مكــة المكرمــة مــدة ليــست قليلــة، قــرات خلالهــا كمــاً لــيس بالقليــل مــن زاد أدب الــرحلات، وعايــشت كيفــاً مــن التــداعيات والتجليــات، أشــرقت أضــواؤه في الــنفس حبــوراً وســروراً، وأعــشبت أمطــاره هــذه الكلمــات الــتي أمــام عينيــك – أخــي القــاريء الكــريم، أخــتي القارئــة الكريمــة – فــإذا لم تجــد فيهــا مايــستحق أن تفــرد لــه الــصفحات فــذلك أن حبــيبي وحبيبــك المــصطفى الــصدوق ﷺ قــد قــال : (مثــل مــابعثني الله بــه عــز وجــل مــن الهــدى والعلــم كمثــل غيــث أصــاب أرضــاً، فكانــت منهــا طائفــة طيبــة قبلــت المــاء فأنبتــت الكــلأ والعــشب الكــثير، وكانــت منهــا أجــادب أمــسكت المــاء فنفــع الله بهــا النــاس، فــشربوا وســقوا وزرعــوا، وأصــاب طائفــة منهــا أخــرى إنمــا هــي قيعان لاتمسك ماء ولاتنبت كلأ)[1]

غــير أنــه ممــا يفــرحني أن هــذا البحــث بــرغم مايعتريــه مــن أوجــه قصور وضعف وخطأ كان محاولة، سعيت فيها إلى :

١ = إبــراز أهميــة أدب الــرحلات في تــشكيل الــصورة الثقافيــة لمكــة المكرمــة في الخــوارط الذهنيــة لكــل المــسلمين، وتــسليط الــضوء

١ – الإمام البخاري، صحيح البخاري مع فتح الباري، كتاب العلم، نشر رئاسة الإفتاء بالرياض ١٣٧٩هـ ١٧٥/١، ومسلم، صحيح مسلم بشرح النووي، نشر دار إحياء التراث العربي، ط٢، ١٣٩٢هـ، ٤٦/١٥، واللفظ لمسلم.

على جزء من ملامح هذه الصورة في كتابات الرحالة العرب، وفي كتابات الرحالة من غيرالعرب .

٢ = إدناء تنوع المعطيات الثقافية إلى ذهن القارئ الكريم، من خلال ماقدمه أدب الرحلات الحجازية في هذا الشأن من جهود وعطاءات مسطورة .

٣ = تأكيد الأثر المتعدي لثقافة مكة المكرمة عبر العصور المختلفة، ليصل إلى كل أصقاع الأرض، وتسليط الضوء على هذا الأثر من خلال المجالات التي تمثل جداول النهر، كالمجاورة، والمؤلفات المكية التي انتشرت في أصقاع الأرض، والحركات الإصلاحية التي شهدتها بعض أقطار العالم الإسلامي .

٤ = تأكيد استمرار وتجدد هذا الأثر المتعدي ؛ لارتباطه باستمرار الحج بمشاعره المادية والمعنوية، بل باستمرار هذا الدين العالمي الخاتم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وأجد أنه من الضرورة أن أنبه إلى ظهور الحاجة ماسةً إلى عمل موسوعي ضخم، يجمع بين دفتيه التقصي، والشمول ؛ لإبراز موضوعات ومجالات ثقافة مكة من خلال أدب الرحلات، بحيث يستطيع هذا العمل أن يقدم صورة واضحة للمعطيات الثقافية في مكة المكرمة، في كل سنة هجرية منذ فتحها بيد المصطفى ﷺ، حتى يومنا هذا، تُستقَى مادته مما كتبه الرحالة عن ثقافة مكة المكرمة، وماتميز به كل عصر عن آخر في عناصر هذه الثقافة .

هذا وبالله التوفيق، ومنه العون والسداد،